

رَوَايَة

جِذْرُ فِي مَهَبِ الرِّيحِ

رَدَّادُ السَّلَامِي



رَوَايَةٌ

جُذُورٌ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

الفصل الأولى

نَبْتُ اليقين

لم يكن اسمه عابراً في حياته، ولا كان لفظاً اختاره أبواه لِيُنَادَى به بين الناس ثم ينتهي أثره عند حدود السمع، فقد سمَّاه أبوه نَبْتُ اليقين في عامٍ أجذبت فيه الأرض حتى انكششت المدرجات الزراعية على جوانب الجبل، وغارت مياه الآبار، وتحولت الحقول التي كانت تتمايل بالذرة إلى صفائح من التراب المتشقق. وفي صباح مولده، بعد ليلةٍ طويلةٍ ظلت فيها أمُّه تنازع الأم تحت سقفٍ تنفذ منه الريح، انحدرت من أعلى الوادي سخابةٌ وحيدة، وأمطرت فوق القرية مطراً قصيراً، لم يكن كافياً لإحياء الزرع، لكنه كان كافياً لإيقاظ الرائحة المختبئة في التراب؛ تلك الرائحة التي تجعل الأرض، مهما طال عليها الجذب، تبدو كأنها لم تفقد عهداً بالحياة.

رأى أبوه في ذلك المطر علامةً خاصة، لا لأنه كان يقرأ الغيب في السحاب، بل لأنَّ القلوب المتعبة تتعلّق أحياناً بأصغر البشائر كيلا تسقط في هوة اليأس. حمل الطفل بين ذراعيه، وتأمّل وجهه الضئيل الذي لم يكن يعرف شيئاً عن العالم الذي وصل إليه، ثم سمَّاه نَبْتُ اليقين؛ كأنه أراد أن يضع في الاسم دعاءً مؤجّلاً، وأن يذكّر نفسه بأنَّ اليقين لا ينبت في الأرض الرخوة، بل يشقُّ طريقه غالباً من بين الحجارة.

كبر نَبْتُ اليقين في قريةٍ لم تكن تظهر على الخرائط إلا لمن يبحث عنها بإصبع صبور. كانت معلقةً على كتف جبلٍ عتيق، توزّع بيوتها الطينية كما لو أنَّ الريح نثرتها هناك ثم عجزت عن اقتلاعها، وتحرسها من الشرق شجرة سدرٍ ضخمة جاوز عمرها أعمار أهل القرية جميعاً. وفي أسفلها كان الوادي يمتدُّ عميقاً ومتعرجاً، يمتلئ بالماء أيام المطر، ثم يعود أكثر العام مجرى

حجراً يحمل ذاكرة السيول ولا يحمل ماءها. وكان الصبي ينظر إليه فيتعلّم، من غير أن يدري، أن بعض الأشياء تظلّ محتفظةً بشكل النعمة بعد غيابها، وأنّ الجفاف لا يحو من الأرض معرفتها بالمطر.

لم تكن طفولته تعيسةً على النحو الذي ترويه الكتب؛ فالأطفال لا يعرفون أسماء النقص الذي يعيشونه، ولا يقيسون بيوتهم ببيوت الآخرين ما دام العالم لم يعرض عليهم خزائنه. كان يركض حافياً على السفوح، ويطارد ظلال الطيور، ويصنع من أعواد الشجر سفناً صغيرة يطلقها في ماء المطر، ثم يمشي خلفها مأخوذاً بذلك المصير القصير الذي يبدأ من كفّه وينتهي بين حجرين. غير أنّ الفقر كان يقيم في التفاصيل التي لا ينتبه إليها الطفل إلا بعد أن يكبر: في ثوب أمّه الذي ظلّ أعواماً يتبدّل لونه ولا يتبدّل، وفي يد أبيه التي تشققت حتى بدا الجلد عليها امتداداً لصخور الجبل، وفي المصباح الذي كانت الأسرة تطفئه باكراً لتوفّر الزيت، وفي الصمت الذي كان يهبط على البيت كلما مرض أحدهم؛ لأنّ المرض في القرى الفقيرة ليس ألماً في الجسد وحده، بل سؤالٌ ماليٌّ قاسٍ قد تعجز الأسرة عن الإجابة عنه.

كانت أمّه، سكينه، امرأةً نحيلةً ذات عينين واسعتين، تحمل في ملامحها ذلك الحزن الهادئ الذي لا يطلب شفقةً من أحد. لم تكن تعرف من القراءة إلا ما يعينها على تلاوة السور القصيرة، لكنها كانت تعرف من معاني القرآن ما لا تمنحه كثرة الكتب وحدها؛ فقد تعلّمت من البلاء أن تقرأ الآيات بحياتها، لا بلسانها فحسب. كانت إذا أبطأ المطر لا تعدّ أطفالها بأنّ السماء ستمطر غداً، وإنما تقول إنّ الله لا ينسى أرضاً خلقها، وإنّ تأخر عطاءه ليس دليلاً على غياب رحمته. وكان نبّ اليقين يشعر، من الطمأنينة التي تستقرّ في صوته، أنّ أمه لا تحاول إقناعهم بقدر ما كانت تستخرج من داخلها قوّة خفيّة، وتوزّعها عليهم كما توزّع كسرة الخبز.

ومنها تعلم أنَّ الإيمان لا يمنع القلب من الألم، لكنه يمنع الألم من أن يصير إلهاً يحتلُّ القلب كله. رآها تبكي موت أخيه الصغير حتى جفَّ صوتها، ثم تقوم عند الفجر، تتوضأ بماء بارد، وتقف بين يدي الله مكسورةً من غير اعتراض، كأنها كانت تجمع شظايا روحها في الصلاة. لم تفهم يومها سرَّ الفقد، ولم تدعْ أنَّ قلبها راضٍ عن وجعه، لكنها كانت تعرف أنَّ الإنسان لا يُشترط له أن يفهم كلَّ ما يجري كي يظلَّ مؤمناً؛ فرمما كانت العبودية في بعض ساعاتها أن تضع رأسك في موضع السجود، بينما تظلُّ الأسئلة واقفةً في رأسك، ثم تقول بقلبك المتعب: إنَّ علم الله أوسع من ألمي.

أما أبوه، فقد كان رجلاً قليل الكلام، شديد الحساسية تجاه المهانة، يرى أنَّ الفقر عارٌ يمكن احتماله، أمَّا الذلُّ فرضٌ إذا استقرَّ في الروح أورثته للأبناء. عمل في الأرض، وحمل الحجارة، وسافر مواسم طويلة بحثاً عن الرزق، ثم عاد في كل مرة بأشياء أقلَّ مما وعد، وبصمتٍ أكثر مما كان يحمل. كان يُكثر النظر إلى ولده الأكبر كأنَّه يعتذر منه عن عالمٍ لم يستطع إصلاحه، ويضع في يده، كلما عاد من سفر، دفترًا صغيراً أو كتاباً قديماً اشتراه من سوق المدينة. ومن بين تلك الكتب جاء إلى البيت مصحفٌ متوسط الحجم، أخضر الغلاف، كانت أطراف صفحاته مهترئةً، وعلى هامشه آثار أصابع مجهولة سبق أن تقلبت في آياته ثم مضت إلى مصيرها.

تعلَّق نبت اليقين بذلك المصحف تعلُّقاً لم يفهمه في البداية. كان يفتحه تحت ضوء المصباح، ويمرُّ بأنامله على الكلمات قبل أن يحسن قراءتها، شاعراً أنَّ وراء انتظام الحروف باباً إلى شيء أكبر من القرية والجبل والفقر والمطر. وحين أخذت المعاني تنفتح له ببطء، لم يجد في القرآن عالماً بديلاً يهرب إليه من واقعه، بل وجد نوراً يعيده إلى الواقع بعينين جديدتين؛ فعرف أنَّ الجائع ليس تفصيلاً زائداً في المجتمع، وأنَّ اليتيم امتحانٌ لضمائر الناس، وأنَّ المال لا يدلُّ على كرامة صاحبه، وأنَّ القوَّة التي تنفصل عن العدل ليست إلا صورةً

منظمةً من صور الطغيان، وأنَّ الإنسان، مهما استعلَى، محمولٌ في النهاية إلى حفرة ضيقة لا تتسع لألقابه.

وكانت أكثر الآيات إقامةً في قلبه قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. لم يكن قد عرف بعدُ ما الجهاد الذي ينتظره، ولا أيَّ السبل ستفترع أمامه، لكنه أحسَّ أنَّ الآية لا تعد الإنسان بطريقٍ يفتح قبل المسير، بل بهدايةٍ تأتي وهو يجاهد؛ كأنَّ بعض الطرق لا تظهر إلا تحت أقدام الذين يملكون شجاعة الخطوة الأولى. ومنذ ذلك الحين استقرَّ في وعيه أنَّ انتظار اليقين الكامل قبل الفعل قد يكون حيلةً يخفِّي بها الخوف، وأنَّ الله يهب السائر من النور بقدر ما يصدق في السير.

في المدرسة، كان يجلس قرب النافذة التي لا زجاج فيها، يتلقَّى نصف الدرس من المعلم ونصفه الآخر من الجبل. كانت عيناه تذهبان إلى القمم البعيدة كلما ضاقت به جدران الفصل، فيرى الطيور تعبر من غير أن تستأذن الحدود، والغيوم تنقل بين الجهات من غير أن تسأل لمن تنتمي السماء. هناك بدأ السؤال الأول يتشكَّل في داخله: لماذا يولد بعض الناس في بيوتٍ يجدون فيها الطريق ممهداً، بينما يولد آخرون وعليهم أن يحفروا الطريق بأظفارهم؟ لم يجد جواباً بسيطاً، ولم يكن القرآن قد علَّمه أن يختصر حكمة الله في جملةٍ مريحة، لكنه تعلَّم منه أنَّ تفاوت الأقدار لا يعني تفاوت القيمة، وأنَّ ما يُعطاه الإنسان ليس دائماً تكريماً، وما يُمنع عنه ليس دائماً إهانة؛ فقد فضح الوحي هذا الوهم القديم بقوله: ﴿كَلَّا﴾، تلك الكلمة التي تهدم المقاييس الزائفة بضربةٍ واحدة، وتعيد الكرامة إلى موضعها الصحيح: قرب الإنسان من الحق، لا كثرة ما تراكم في يديه.

وحين بلغ الخامسة عشرة، كانت البلاد قد بدأت تتغير. صارت الأخبار تصل إلى القرية محمولةً على أصوات المذياع وعلى وجوه الرجال العائدين من المدن. كلماتٌ مثل السلطة

والحزب والحرب والقبيلة كانت تدخل المجالس أكثر مما تدخلها أخبار المطر والحصاد، وكان الكبار يتحدثون عن الوطن كما لو أنه غنيمةٌ تتنازعها أيدي كثيرة، لا بيتٌ ينبغي أن يتَّسع لأهله. رأى نبتُ اليقين كيف يستطيع الخوف أن يغيّر أصوات الرجال، وكيف تتحول الحقيقة على ألسنتهم بحسب القادم من الطريق، وكيف يصبح الصمت حكمةً عند من يخشى الثمن، وخيانةً عند من يدفعه غيره.

لكنه لم يكن يعرف أنَّ تلك الكلمات ستنزل قريباً من المذيع إلى أرض القرية، وأنَّ الحرب التي تبدو من بعيد خبراً يمكن إغلاقه بإدارة المفتاح، ستأتي يوماً لتطرق بابهم بقبضةٍ من حديد. لم يكن يعرف أنَّ الجبل الذي علَّمه الثبات سيشهد فراره، وأنَّ المصحف الأخضر سيكون الشيء الوحيد الذي يحمله معه حين يترك البيت، وأنَّ أمّه ستقف عند العتبة تراقب ظهره وهو يبتعد، فيما يهبط في قلبها يقين الأمهات بأنَّ بعض الوداعات لا تُخلق لها عودةٌ تشبه ما قبلها.

في تلك الليلة، كان نبتُ اليقين جالساً فوق سطح البيت، يراقب القمر وهو يصعد من وراء القمة كأنَّه يخرج ببطءٍ من جرج في الجبل. كانت القرية ساكنةً، والريح تمرُّ بين أشجار السدر بصوتٍ يشبه تلاوةً بعيدة، وحين فتح مصحفه وقعت عيناه على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فُتْلًا قَبْلَهُ﴾. قرأها مرات، وشعر أنَّها لا تصف رحلةً تنتهي بالموت فحسب، بل تكشف حقيقة الحياة كلّها: أنَّ الإنسان لا يقيم فيها، وإنما يكدح عبرها؛ وأنَّ أيامه ليست أشياء يفقدها واحداً بعد آخر، بل خطواتٌ تتراكم في طريق اللقاء.

أغلق المصحف، ووضع كفه على غلافه الأخضر، ثم رفع عينيه إلى السماء. كان في الخامسة عشرة، لكنَّ شيئاً غامضاً في داخله شعر بأنَّ طفولته توشك أن تنتهي، وأنَّ الطريق الذي كانت أمّه تحدِّره من أن يصل في آخره إلى مكانٍ لا يشبهه قد بدأ بالفعل يتكوّن

تحت قدميه. ولم يكن الخطر يومئذٍ أن يضلَّ الطريق إلى المدينة، بل أن يضلَّ، في زحام
السنوات المقبلة، الطريق إلى نفسه.

الفصل الثاني

حين هبطت الحرب من المذيع

لم تأتِ الحرب إلى القرية في هيئة جيشٍ واضحٍ المعالم، ولم تتقدَّم إليها براياتٍ يعرف الناس من ألوانها مَنْ عدوُّهم ومَنْ صديقهم؛ بل تسَلَّت في البداية على هيئة شائعاتٍ متقطّعة، ثم صارت خوفاً خفياً يغيّر مواعيد الأسواق، ويُطيل وقوف الرجال عند مفارق الطرق، ويجعل الأمهات يُدخلن أطفالهن إلى البيوت قبل أن تتخدر الشمس خلف الجبل. كانت أخبارها تصل كلّ مساء عبر مذياعٍ قديمٍ معلقٍ على مسمار في صدر المجلس، فيلتفُّ حوله الرجال بوجوهٍ متجهّمة، ويصغون إلى كلماتٍ ضخمةٍ عن الانتصار والتحرير والسيادة، بينما كانت البلاد في الخارج تنفّت بصمتٍ لا تعترف به نشرات الأخبار.

عرف نبت اليقين يومئذٍ أنّ الكلمات قد تُستخدم لإضاءة الحقيقة، وقد تُستخدم أيضاً لإخفائها؛ وأنّ أكثر الأكاذيب خطراً ليست تلك التي تناقض الواقع صراحةً، بل التي تأخذ قطعةً صغيرةً منه، ثم ترفعها أمام العيون حتى تحجب المشهد كلّهُ. كان كلّ فريقٍ يتحدث كأنّ الله لم يخلق في البلاد سواه، وكأنّ دماء الآخرين ماءً زائداً يمكن أن يُسكب في الطريق للوصول إلى غايةٍ يسمّيها مقدّسة. ومنذ ذلك الوقت بدأ يشكُّ في الخطابات التي ترفع صوتهما كلما قلَّ نصيبها من الحق، وتكثر من الحديث عن المبادئ كلما احتاج أصحابها إلى ستر أطماعهم.

كانت الحرب، قبل أن تكون مدافعٍ وقذائف، انقلاباً في معاني الأشياء؛ فالقاتل صار بطلاً إذا قتل في الجهة المرغوبة، والكذب صار ضرورةً إذا خدم الجماعة، والظلم صار خطأً ثانوياً يمكن تأجيل الحديث عنه حتى يتحقق النصر. أما الإنسان، ذلك الذي جاء الوحي لحفظ

دمه وكرامته وعقله، فقد انكمش في لغة المتصارعين إلى رقمٍ في قائمة الضحايا، أو صورةٍ تُرفع لإدانة خصمٍ ثم تُنسى حين ينتهي أثرها.

كان أبوه يتابع ذلك التحول بقلبٍ مثقل. لم يكن رجل سياسة، لكنه كان يمتلك الفطرة التي تميز بين رايةٍ تحمل قضيةً وقضيةٍ تحملها شهوة السلطة. وكان يعرف أنَّ النار إذا أُضرمت في بيتٍ واحد فلن تسأل بقية البيوت عن موافقها قبل أن تصل إليها. لذلك أخذ يخزن شيئاً من الحبوب، ويرمم الباب الخارجي، ويتفقد الطريق المؤدية إلى الوادي، كأنه يهيئ أسرته لضييفٍ يعرف أنه قادم ولا يعرف متى يطرق الباب.

أما نبأ اليقين، فكان يتابع وجه أبيه أكثر مما يتابع المذيع؛ فالوجه البشري أصدق من البيانات حين يعجز الكلام عن الاعتراف بالخوف. رأى التجاعيد تزداد حول عينيه، ويده تتردد فوق أزرار المذيع قبل أن تطفئه، ونظراته تطول نحو الطريق كلما نبج كلبٌ في الليل. وكان الصبي يشعر بأن شيئاً ما يُنتزع من أبيه ببطء: ذلك الإحساس القديم بأنَّ الرجل قادرٌ على حماية بيته إذا أغلق بابه وأحسن جواره. لقد جاءت الحرب لتخبر الآباء أنَّ الأبواب أضعف من القذائف، وأنَّ الأذرع التي حملت أبناءها صغاراً قد تعجز عن ردِّ موتٍ يأتيهم من وراء الجبال.

وفي صباح بارد، ظهر أول المسلَّحين عند مدخل القرية. كانوا خمسة رجالٍ يغطِّي الغبار ثيابهم، ويحملون بنادقَ بدت أكبر من أجساد بعضهم، لكنَّها منحتمهم سلطةً لم تمنحها لهم أعمارهم ولا حكمتهم. مرُّوا بين البيوت بعيونٍ تفحص الوجوه، ثم استقروا قرب شجرة السدر التي كانت موضع راحة المسافرين ومجلس الصلح بين المتخاصمين. ومنذ جلسوا تحتها فقدت الشجرة حيادها القديم؛ فقد تعلَّم الناس أنَّ الأشياء البريئة تتغير حين تستولي عليها القوة، وأنَّ الظلَّ نفسه قد يصبح مخيفاً إذا جلست تحته بندقية.

لم يسأل أهل القرية الرجال عن الجهة التي ينتمون إليها؛ فالأسئلة في زمن السلاح لا تُقاس ببراءتها، بل بما قد تثيره في نفس المسلّح. اكتفوا بالمراقبة من وراء الأبواب، بينما أخذ الغريب يسألون عن أسماء الشباب، وعن الطرق الجبلية، وعن البيوت التي تملك سيارات أو مخازن حبوب. كان حديثهم مشبعاً بكلمات الواجب والكرامة والدفاع، لكنّ أعينهم كانت تتحرّك فوق ممتلكات الناس بطريقة لا تشبه أعين المدافعين.

أدرك نبت اليقين أنّ الخوف لا يدخل القرية دفعةً واحدة؛ يبدأ بتنازل صغير عن سؤال مشروع، ثم بصمتٍ عن إهانةٍ عابرة، ثم باعتذار الضحية للمسلّط كي يضمن سلامته، حتى يستيقظ الناس فيجدوا أنّهم سلّوا حريتهم قطعةً قطعة، ولم ينتزعها منهم أحدٌ في معركةٍ واحدة. وكان أشدّ ما أفزعهم أنّ بعض الرجال أخذوا يتقرّبون من المسلّحين سريعاً، ويمنحونهم من الأخبار ما لم يطلبوه، لا حباً فيهم، بل رغبةً في شراء موضع آمن داخل الخوف. يومها فهم أنّ الطغيان لا يصنعه الطاغية وحده؛ بل تسهم في بنائه قلوبٌ صغيرة تعتقد أنّ نجاتها الفردية تستحقّ أن يدفع ثمنها من كرامة الآخرين.

بعد أيام، طلب المسلّحون من القرية ثلاثةً من شبابها للالتحاق بهم. لم يسمّوا الأمر تجنيداً قسرياً، بل أحاطوه بعباراتٍ لامعة تجعل رفضه خيانةً، وقبوله بطولةً. كان أحد الأسماء اسم نبت اليقين.

حين سمع أبوه بذلك، لم يتبدّل وجهه، لكنّ الصمت الذي غمره كان أشدّ من الصراخ. ظلّ جالساً في ناحية المجلس، ينظر إلى المصباح المعلق، كأنّه يبحث في ضوءه المرتجف عن طريق لا يراه أحد. كانت الخيارات أمامه قليلةً وقاسية: أن يسلم ولده إلى حربٍ لا يؤمن بها، أو يرفض فيعرض البيت كلّهُ للانتقام، أو يرسله بعيداً قبل أن يعود المسلّحون، فيفتح له باب المجهول ويحميه من موتٍ أقرب.

أما سكينه فقد دخلت الغرفة التي ينام فيها نبت، وجلست قرب ثيابه المطوية، ومَرَّرت يدها عليها كما كانت تفعل حين كان صغيراً. لم تبك؛ إذ توجد أحزانٌ أكبر من أن تسيل، فتحوّل في القلب إلى ثقلٍ صامتٍ يغيّر طريقة التنفّس. كانت تعرف أنّ ابنها لم يعد طفلاً، لكنها لم تعرف متى حدث ذلك؛ فالأمّهات لا يرين أبناءهن يكبرون على هيئة أعوام، بل يكتشفن فجأة أنّ اليد التي كنّ يُسكن بها كيلا تضيع في السوق قد صارت يداً ينبغي لهنّ أن يتركها تمضي وحدها في طرق العالم.

قبيل الفجر، قرّر أبوه أن يرسله إلى المدينة. كان له صديقٌ قديمٌ يدير متجرّاً صغيراً قرب محطة الحافلات، ويمكن للصبي أن يعمل معه حتى تهدأ الأوضاع. لم يكن القرار نجاةً كاملة، فالمدن التي تتجمّع فيها الجيوش والسلطات ليست أكثر أمناً من القرى، لكنها تمنح الغريب فرصة للاختباء داخل الزحام، بينما يصبح كلّ وجهٍ في القرية معروفاً، وكلُّ غيابٍ سؤالاً.

جمع نبت اليقين ثيابه في حقيبة قماشية صغيرة، ووضع المصحف الأخضر بينها، ثم وقف وسط الغرفة يتأمّل الأشياء التي ظنّ طوال حياته أنّها ستظلّ في أماكنها: فراشه القريب من الجدار، نافذته المطلّة على الوادي، الرفّ الذي وضع عليه دفاتره، والمسمار الذي علّق عليه أول حقيبة مدرسية امتلكها. بدت الغرفة في تلك اللحظة أوسع مما كانت، كأنّ الفراق يوسّع الأمكنة قبيل مغادرتها حتى يجعل الخروج منها أشدّ ألماً.

لم يبق أحدٌ في البيت تلك الليلة. كانت سكينه تحبّز له أرغفةً تكفي الطريق، وتدسّ بينها قليلاً من الزعر والمالح، بينما خرج أبوه مراراً ليتفقّد المسلك الخلفي المنحدر نحو الوادي. وحين اقتربت ساعة الرحيل، توضّأ نبت اليقين وصلى ركعتين، لكنه لم يجد الكلمات التي يدعو بها؛ فقد كانت رغباته تتزاحم في قلبه: أراد النجاة، وأراد ألاّ يترك أسرته، وأراد أن

تنتهي الحرب، وأراد أن يستيقظ فيجد أنَّ ما يجري مجرد كابوس طويل. ثم أدرك أنَّ الدعاء ليس بياناً مرتباً يقدِّمه الإنسان إلى الله، وأنَّ الله يعلم ارتباطك القلب قبل أن يستقيم على اللسان، فاكتمى بأن يرَدِّد في سرِّه: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

لم تكن الآية عنده تعهداً بأنَّه لن يُصاب بسوء، ولا وعداً بأنَّ الطريق ستخلو من المخاطر، بل كانت تحريراً للقلب من عبودية الاحتمالات؛ لحسبُ المؤمن بالله لا تعني أنَّه سيحصل دائماً على ما يريد، وإنما أنَّه لن يُترك بلا معنى، وأنَّ ما يفوته من تديره لا يفوت علم الله، وما يعجز عن حمله لا يعجز الله أن يحمله عنه.

خرج قبل أن ينشقَّ الصباح، وكانت أمُّه واقفةً عند الباب، تغالب في ملامحها أوممتين متنازعتين: أوممة تريد أن تضمَّه إلى صدرها وتمنعه من الرحيل، وأوممة تعرف أنَّ الحبَّ أحياناً لا ينجي من يحبُّهم إلا بأن يتركهم يتعدون. وضعت يدها على رأسه، وقرأت ما تحفظ من آيات الحفظ، ثم ناولته كيس الخبز. لم تُكثر الوصايا؛ فقد كانت تعرف أنَّ الطريق إذا ازدحم بالكلمات ضاعت أهمُّها، ولذلك اختصرت قلبها كلَّه في معنى واحد: أن يحفظ في غربته وجهه الذي تعرفه، وأنَّ لا يعود إليها ناجياً من الموت وقد هلك في داخله الإنسان الذي ربَّته.

انحنى نبت اليقين وقبَّل يدها. وحين رفع رأسه لمح في عينيها خوفاً لم يره من قبل، خوفاً لا يتعلَّق بأن يموت، بل بأن يعيش طويلاً بعيداً عنها، وأن تغيِّر المدن والحروب حتى يعود رجلاً يحمل ملاح ابنها ولا يحمل قلبه.

سار مع أبيه في الممرِّ الخلفي، ثم هبط نحو الوادي. كانت القرية خلفهما غارقةً في الظلمة، لا يظهر منها إلا ضوءٌ شاحب في نافذة البيت. وعند شجرةٍ صغيرة وقف الأب، وأخرج من جيبه مبلغاً قليلاً جمعه على امتداد سنوات، ووضعه في يد ولده. لم يقل له إنَّه

كلُّ ما يملك، لكنَّ نبتًا عرف ذلك من ارتعاش أصابعه. أراد أن يرفض، ثم أدرك أنَّ رفض عطية الأب في لحظة العجز قد يجرح كرامته أكثر مما يحفظ ماله، فقبض عليه كما يقبض المرء على جزءٍ من عمر رجلٍ آخر.

عند مفترق الطريق افترقا. بقي الأب واقفًا يراقب ولده يصعد المسلك الحجري، ونبتُ اليقين يمشي ولا يلتفت؛ لأنَّه كان يعرف أنَّ نظرةً واحدةً إلى الخلف قد تهدم في قلبه القدرة التي جمعها طوال الليل. غير أنَّه حين بلغ قمة المنحدر، التفت رغماً عنه. رأى أباه نقطةً سوداء صغيرةً في قاع الوادي، ورأى فوقه القرية والجبل والسماء التي بدأت تستردُّ زرقها من الظلام، وشعر أنَّ حياته كلَّها تقف هناك في مشهدٍ واحد، بينما يمضي جسده إلى جهةٍ لا يعرفها.

رفع أبوه يده، ورفع نبتُ يده أيضًا، ثم استدار وأكمل طريقه.

لم يكن يعلم أنَّه لن يرى أباه بعد ذلك واقفًا على قدميه، ولا أنَّ الحرب ستصل إلى البيت بعد رحيله بثلاثة أيام، ولا أنَّ الاسم الذي حمله بوصفه دعاءً سيصبح امتحانًا طويلًا: هل يستطيع نبتُ اليقين أن يظلَّ حيًّا في أرضٍ ثقتن اقتلاع جذورها؟ وهل يكفي أن يعرف الإنسان طريقه إذا كان العالم كله يدفعه إلى غيرها؟

كانت الشمس تخرج ببطء، وكان الطريق أمامه يضيق بين جبلين، كأنَّه بابٌ حجريٌّ يعبر منه من حياةٍ إلى حياة. شدَّ حقيته على كتفه، وتحسَّس موضع المصحف داخلها، ثم مضى. وفي قلبه كانت تتردَّد الآية التي قرأها فوق سطح البيت: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلَا قِيَةَ﴾؛ ولم يكن يدري أنَّ أول الكدح قد بدأ، وأنَّ الطريق لن يختبر قوةً قدميه وحدها، بل سيضع ضميره كله في النار، ليرى أخرج منها يقينًا أم رمادًا.

الفصل الثالث

المدينة التي لا تحفظ أسماء العابرين

وصل نبتُ اليقين إلى المدينة عند الظهيرة، بعد رحلةٍ بدت له أطول من المسافة التي تفصلها عن قريته؛ فالطرق لا تُقاس دائماً بعدد الأميال، بل بمقدار ما تخلعه عن الإنسان من طمأنينته القديمة. كان قد ركب في صندوق شاحنةٍ محمَّلةٍ بأكياس الجيوب، وجلس بين رجالٍ لم يسأل أحدهم الآخر عن اسمه، كأنَّ الخوف قد علَّهم أنَّ المعرفة عبء، وأنَّ المرء كلما قلَّ ما يعرفه عن رفيق الطريق قلَّ ما يستطيع أن يُكره على الاعتراف به إذا أوقفهم المسلَّحون.

عند كلّ نقطة تفتيش كانت الشاحنة تُوقَّف، وتُصعد إليها وجوهٌ جديدة تحمل السلاح ذاته وتختلف في الشارات. يسأل كلُّ فريقٍ عن الجهة التي جاءوا منها والجهة التي يقصدونها، كأنَّ الإنسان لم يعد يُعرَّف بما يحمل في قلبه، بل بالطريق الذي سلكه والمكان الذي وُلد فيه والاسم الذي كُتب في بطاقته. وكان نبتُ يرى كيف يهبط الرجال من الشاحنة بظهورٍ مستقيمة، ثم يعودون إليها بانحناءٍ خفيّةٍ؛ فقد كانت الإهانة تمرُّ على أجسادهم كالريح الباردة، لا تترك جرحاً ظاهراً، لكنها تنتزع من داخلهم شيئاً لا يراه أحد.

وحين توقَّفت الشاحنة أمام نقطةٍ أقامها فتیانٌ لا يكبرونه بكثير، أمر أحدهم الركاب بالنزول والوقوف بمحاذاة الجدار. نظر نبتُ اليقين إلى البندقية المعلقة على كتف الفتى، ثم إلى وجهه الذي لم يكتمل فيه أثر الرجولة، وفهم كيف تختصر الحرب الطريق بين الطفولة

والسلطة؛ تمنح الصغير سلاحاً قبل أن تمنحه بصيرة، ثم تترك بين يديه مصائر رجالٍ علَّتهم أعمارهم أن يبتلعوا غضبهم كي يعودوا إلى أطفالهم.

مدَّ الفتى يده إلى حقيبته، وأفرغ محتوياتها فوق التراب. تدرجت الأرغفة اليابسة، وسقط الثوب والدقتر والمصحف الأخضر. انحنى نبثُ بسرعة ليرفع المصحف، لكنَّ قدم المسلَّح سبقته واستقرَّت قرب غلافه، لا فوقه، ومع ذلك شعر الصبي أنَّ شيئاً في داخله قد أُهين. لم يغضب لأنَّ الكَّاب يحتاج إلى غضبه كي تُصان حرمة، بل لأنَّ اليد التي تحمل السلاح باسم الدين لم تتعلَّم من الدين كيف تحترم الإنسان وكتابه وخبزه.

رفع المصحف ونفض عنه الغبار، ثم أعاد الأشياء إلى الحقيبة بصمت. كان يستطيع أن يتكلَّم، لكنَّه أدرك أنَّ الشجاعة ليست اندفاعاً أعمى إلى الهلاك، وأنَّ كلمة الحق لا تنفصل عن فقه اللحظة ومآلاتها. غير أنَّ صمته لم يكن استسلاماً؛ فقد سجَّل وجه الفتى في ذاكرته، لا لينتقم منه، بل ليتذكَّر أنَّ الظلم قد يأتي أحياناً بملاحٍ صغيرة، وأنَّ القسوة لا تحتاج إلى قلبٍ عظيم الشر، بل يكفيها قلبٌ ضئيلٌ وشيءٌ من السلطة.

حين تحرَّكت الشاحنة من جديد، فتح المصحف على ركبتيه، فوقعت عيناه على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. ظلَّ يتأمل الآية طويلاً؛ فقد كان يستطيع أن يفهم الأمر بالعدل مع من يحبُّهم، أمَّا أن يطالب بالعدل مع من أذله قبل دقائق، فذلك هو الموضع الذي تتحوَّل فيه الآية من معرفةٍ إلى مجاهدة. أدرك أنَّ القرآن لا يطلب من الإنسان أن ينكر غضبه، بل يمنعه من أن يسلمَّ الغضب قيادة ضميره؛ لأنَّ المظلوم إذا فقد العدل في خصومته لم ينتصر على الظلم، وإنما سمح له أن يتكاثر داخله.

بدأت المدينة من بعيد كتجمُّع هائل من الإسمنت والغبار. لم تكن لها الملايح الواضحة التي تملكها القرية؛ فلا جبلٌ واحد يحرسها، ولا شجرةٌ يعرف الناس أعمارهم في ظلِّها، ولا طريقٌ ينتهي إلى بيتٍ مألوف. كانت شوارعها تتفرَّع كأنَّها أسئلة، وتندافع فيها السيارات والعربات والبشر في حركةٍ لا تمنح أحداً وقتاً ليرى أحداً. شعر نبتُ اليقين، منذ خطوته الأولى، أنَّ المدينة لا تكره الغريب ولا تحبُّه؛ إنَّها ببساطة لا تراه، وتلك قسوةٌ لم يعرفها في قريته، حيث قد يختلف الناس ويتخاصمون، لكنَّ أحداً لا يستطيع أن يصير مجهولاً.

بحث عن متجر صديق أبيه حتى أوشك المساء أن يدركه. كان يحمل ورقةً كتب عليها اسم الشارع، غير أنَّ أسماء الشوارع في المدينة بدأت أقلَّ رسوخاً من أسماء أصحاب النفوذ الذين يغيِّرونها كلما تغيَّرت السلطة. سأل باعةً وعابرين، فأشار كلُّ واحدٍ إلى جهة، وظلَّ يدور بين الأزقة بينما تثقل الحقيقة على كتفه ويخفُّ في قلبه الأمل بأن يجد مأواه قبل حلول الظلام.

وأخيراً وصل إلى دكَّان صغير محشورٍ بين محلِّ لقطع السيارات ومخبزٍ تفوح منه رائحة الخبز الساخن. كان الرجل الذي يديره يدعى عبد الودود، وقد عرف أباه في سنوات السفر والعمل. استقبله بوجهٍ متعب، ولم يُظهر دهشةً كبيرة؛ فقد كانت الحرب ترسل كلَّ يوم إلى المدينة أقاربَ وأبناءَ أصدقاء ووجوهاً تبحث عن زاويةٍ تنجو فيها. قرأ رسالة أبيه، ثم طواها ووضعها في جيبه، وأشار إلى مساحةٍ ضيقة خلف أكياس الدقيق يمكن للصبي أن ينام فيها.

منذ ليلته الأولى، عرف نبتُ أنَّ المدينة لا تمنح مكاناً بلا ثمن. كان عليه أن يفتح الدكان قبل الشروق، ويحمل الأكياس، وينظف الأرض، ويسجلَّ الديون، ويوصل الطلبات إلى البيوت القريبة، ثم يغلق الأبواب بعد أن يهدأ الشارع. لم يكن العمل شاقاً عليه؛ فقد ربَّته

القرية على أنَّ الجسد الذي لا يتعب لا يعرف قيمة الراحة، لكنه أحسَّ أنَّ الأيام بدأت تتشابه سريعاً، وأنَّ الإنسان قد يضيع في التكرار كما يضيع في الفوضى؛ يستيقظ ويعمل ويأكل وينام، ثم يكتشف أنَّ حياته تحرَّكت من غير أن نتقدَّم.

كان عبد الودود رجلاً عملياً، صقلت التجارة قلبه حتى صار يحسب الخسائر قبل الأحران. لم يكن سيئاً، لكنه عاش طويلاً في مدينةٍ تعاقبت عليها الأزمات حتى تعلَّم أن يتعامل مع البشر باعتبارهم احتمالاتٍ للربح أو الخسارة. أطمع نبتاً وأسكنه، غير أنَّه كان يذكِّره، من غير كلماتٍ كثيرة، بأنَّ المعروف الذي يقدِّمه ليس مجانياً، وأنَّ الفتى ينبغي له أن يعمل بما يكفي كيلا تتحوَّل صلته بأبيه إلى فاتورةٍ مؤجلة.

تقبَّل نبتُ اليقين ذلك في البداية؛ فقد كان الامتنان يمنعه من رؤية ما في الأمر من استغلال. كان يستيقظ قبل الجميع، ويواصل العمل بعد أن تغلق المتاجر، ويأخذ من الطعام أقلَّ مما يحتاج إليه لثلا يبدو ثقيلاً. غير أنَّه اكتشف بمرور الأيام أنَّ بعض الناس لا يكتفون بامتنان المحتاج، بل يحولونه إلى قيدٍ يضمنون به طاعته؛ فكلها أراد أن يطلب حقاً بسيطاً تذكَّر الخبز الذي أكله، والسقف الذي نام تحته، والرسالة التي حملها من أبيه، فيعود إلى صمته شاعراً أنَّ النجاة التي حصل عليها لم تكن باباً إلى الحرية، بل انتقالاً من خوفٍ ظاهر إلى تبعيةٍ أكثر هدوءاً.

وفي الليالي كان يمدُّ فراشه بين الأكياس، ويخرج المصحف الأخضر من حقيبته، ثم يقرأ على ضوء مصباح الدكان. كانت روائح الدقيق والتوابل والزيت تحيط به، وأصوات السيارات المتأخرة تعبر من وراء الباب الحديدي، لكنه ما إن يفتح الكتاب حتى يشعر بأنَّ في داخله مكاناً لا تستطيع المدينة اقتحامه. لم يكن يهرب بالقراءة من واقعه، بل كان يستعيد بها حقَّه في تفسيره؛ فالواقع إذا تُرك بلا نورٍ فسَّره الأقوى لمصلحته، وأقنع المظلوم

أنَّ ما يقع عليه قدرٌ لا يجوز مقاومته، وأنَّ الصبر هو أن يتعايش مع الإهانة. أمَّا القرآن فكان يعلِّبه أنَّ الصبر ليس مصالحةً مع الباطل، بل ثباتٌ على الحقِّ حتى لا يغيِّر الألم معدنَ صاحبه.

مرَّ أسبوعان من غير خبرٍ عن أسرته. تعطلَّت خطوط الاتصال، وأغلقت طرق، وتكاثرت الشائعات عن اشتباكاتٍ امتدَّت إلى القرى المحيطة. كان نبتٌ يذهب كلَّ مساءً إلى موقف الحافلات يسأل القادمين، ويصف لهم قريته وشجرة السدر والطريق المنحدرة إلى الوادي، فلا يجد إلا أخباراً ناقصةً تتناقض كلما انتقلت من فمٍ إلى آخر. قال بعضهم إنَّ المنطقة هادئة، وقال آخرون إنَّ المسلَّحين دخلوا القرى، وذكر رجلٌ أنَّ بيوتاً أُحرقت، لكنه لم يعرف أسماء أصحابها.

تعلَّم في تلك الأيام أنَّ الجهل بمصير الأحبة نوعٌ مستقلٌّ من العذاب؛ فالحزن على خبرٍ مؤكَّد، مهما كان قاسياً، يجد موضعاً يستقرُّ فيه، أمَّا الاحتمال فيظلُّ ينهش القلب من جهاتٍ متعدّدة. كان يتخيَّل أمّه آمنةً فتغمره الطمأنينة لحظة، ثم يراها في خياله تهرب بين الصخور فيشعر بالاختناق، ثم يتذكَّر أباه واقفاً في قاع الوادي رافعاً يده، فيسأل نفسه إن كانت تلك الإشارة وداعاً عرف الأب معناه وخفي على الابن.

وفي الليلة الخامسة عشرة، طرق باب الدكان رجلٌ من أبناء المنطقة. كان الغبار يغطي وجهه، وفي عينيه ذلك الاضطراب الذي يسبق الأخبار الفادحة. عرف نبتُ اليقين من صمته أنَّ الكلام الذي جاء به لا يريد أن يُقال. أدخله عبد الودود وأغلق الباب، ثم جلس الثلاثة بين أكياس الدقيق، بينما ظلَّ المصباح يتأرجح فوق رؤوسهم، فيكبِّر ظلالهم على الجدار ويصغِّر أجسادهم أمام ما ينتظرهم.

لم تكن الأخبار واضحةً كلّها، لكنّ المؤكّد منها كان كافياً ليقسم حياة نبتٍ إلى نصفين. دخل المسلّحون القرية بحثاً عنه وعن الشابين الآخرين، واتهموا أهلهم بتبريهم، ثم اقتادوا أباه مع عددٍ من الرجال. وفي الطريق وقع إطلاق نارٍ لم يعرف أحدٌ مصدره، فأصيب الأب في ساقه، وتُركَ ينزف ساعاتٍ قبل أن يستطيع أهل القرية الوصول إليه. كان حيّاً حين نُقل إلى بيتٍ قريب، لكنّ الطريق إلى المستشفى كانت مغلقة، والدم الذي أفناه في الحقول والأسفار خرج منه على أرضٍ لم تستطع أن تقدّم له غير التراب.

أما سكينه، فقد بقيت إلى جواره حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. لم يستطع الرجل أن ينطق بوصيّةٍ طويلة؛ كانت الحياة تنسحب منه أسرع من الكلمات. غير أنّه ظلّ يحرك شفّتيه بالشهادة، ووضعه يده فوق صدره كأنّه يبحث عن شيءٍ ينبغي أن يسّله قبل الرحيل. ثم مات قبل الغروب، ودُفن في الليلة ذاتها، من غير أن يحضر ابنه الأكبر، ومن غير أن يملك أهل القرية وقتاً كافياً للحزن.

استمع نبت اليقين إلى الخبر كاملاً ولم يبك. بقي جالساً، ويداه فوق ركبتيه، وعيناه معلّقتان بظلّ المصباح. شعر أنّ الكلمات دخلت أذنيه لكنها لم تبلغ قلبه بعد، كأنّ النفس تمتلك أبواباً تغلقها حين يكون القادم أكبر من قدرتها على الاستقبال. كان يعرف معنى الموت، وقد رأى أخاه الصغير محمولاً إلى قبره، لكنّ موت الأب لم يكن غياب شخصٍ واحد؛ كان سقوط جدارٍ ظلّ قائماً في داخله حتى حين ابتعد عنه.

خرج إلى الشارع بعد منتصف الليل. كانت المدينة مستمرّة في حياتها كأنّ شيئاً لم يحدث؛ سيارةٌ تعبر مسرعةً، ورجلٌ يغلق متجره، وضحكةٌ تخرج من نافذةٍ مرتفعة، ورائحة خبزٍ جديد تنبعث من الخبز. صدمه أنّ العالم لا يتوقّف حين يموت آباؤنا، وأنّ الفاجعة التي تملأ قلب إنسانٍ قد لا تشغل من مساحة الكون موضع قدم. هناك، وسط الشارع، أحسّ للمرة

الأولى بوحدة كاملة؛ لم يعد الصبي الذي ترك أباه في قاع الوادي، بل صار رجلاً دفع جفأةً إلى مقدمة حياته من غير أن يستعدَّ.

مشى حتى بلغ مسجداً صغيراً كان بابه الخارجي مفتوحاً. دخل، وتوضأ، ثم جلس في الصف الأخير. حاول أن يصلي فلم يستطع؛ كانت صورة أبيه تعود إليه في كلِّ حركة، ويده وهي تضع المال في كَفِّه، ووقوفه عند مفترق الطريق. خرج البكاء منه أخيراً، لا دموعاً هادئة، بل انهبارة صامتة هزَّ كتفيه وأفقده القدرة على التنفُّس. وضع جبهته على السجادة، ولم يقل شيئاً؛ فقد كانت الفاجعة أكبر من اللغة، لكنه شعر أنَّ سجوده نفسه كلام، وأنَّ الله يسمع من انكسار العبد ما لا يستطيع لسانه أن يصوغه.

ظلَّ على حاله حتى اقترب الفجر. ثم رفع رأسه وفتح المصحف الذي حمله معه، فوقعت عيناه على قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾. توقَّف عند قوله: ﴿يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾، وشعر أنَّه لم يكن يحتاج في تلك اللحظة إلى تفسير المصيبة بقدر حاجته إلى قلبٍ يستطيع حملها. فالهداية ليست دائماً أن تعرف لماذا وقع ما وقع، بل أن يمنحك الله قلباً لا يضيع حين تضيع الإجابات، ولا يتحوَّل حزنه إلى اعتراضٍ أعمى، ولا يسمح للظلم الذي أصابه أن يقطع صلته بالعدل والرحمة.

لكنَّه، في عمق حزنه، أحسَّ بشيءٍ آخر ينبت إلى جوار الألم: غضبٌ أسود على الذين أخذوا أباه، وعلى الحرب التي جعلت موته حادثاً عابراً، وعلى الرجال الذين يقتلون ثم ينامون مقتنعين بأنَّ الشعارات غسلت الدم عن أيديهم. كان الغضب صادقاً في أصله، لكنه شعر بخطورته حين بدأ يقترح عليه وجهاً جديداً للحياة؛ وجهاً لا يرى في الناس إلا قاتلاً أو ضحية، ولا يعرف من العدالة إلا الانتقام.

أغلق المصحف، وأدرك أنَّ معركته الأولى لن تكون مع الرجال الذين قتلوا أباه، بل مع الكراهية التي دخلت قلبه من الجرح الذي تركوه. لم يكن مطالباً بأن يسامحهم في تلك اللحظة، ولا بأن يتظاهر بسلامٍ لا يشعر به، لكنه كان مطالباً ألا يهيبهم ما بقي له بعد أبيه: ضميره.

وحين ارتفع أذان الفجر، وقف نبتُ اليقين في الصفِّ بين رجالٍ لا يعرف أسماءهم. كبر الإمام، فرفع يديه، وشعر أنَّه يضع خلفه ليلةً خرج منها غير الذي دخلها. لقد مات أبوه بعيداً عنه، لكنَّ موته ترك في قلبه عهداً لم يُنطق: أن يعيش الابن بحيث لا يصبح الخوف الذي قتله سيِّداً على حياته، وألاَّ يحمل اسم اليقين ثم يبيع نفسه لأول طريقٍ يعده بالأمان.

خرج من المسجد مع انبثاق الضوء. كانت المدينة تغسل وجهها من ظلمة الليل، والبيعة يفتحون أبوابهم، والخبز يخرج ساخناً من الأفران، فيما كان العالم القديم داخل نبتٍ يُورارى الثرى. سار نحو الدكان بقدمين مثقلتين، وهو يعلم أنَّه لم يعد يملك بيتاً يعود إليه كما تركه، وأنَّ الطريق إلى أمِّه قد أغلق، وأنَّ عليه منذ اليوم أن يصنع من غربته طريقاً، ومن حزنه بصيرةً، ومن كتابه جذراً لا تستطيع ريحُ الحرب اقتلاعه.

الفصل الرابع

حين صار الخبز امتحاناً

عاد نبتُ اليقين إلى الدكان بعد صلاة الفجر، فوجد عبد الودود واقفاً عند الباب ينتظره. لم يسأله أين قضى ليلته، ولم يضع يده على كتفه، ولم يقل شيئاً يخفف عن قلبه؛ فقد كان من أولئك الرجال الذين أفسدت الأزمان قدرتهم على الاقتراب من أحزان الآخرين، حتى صاروا ينظرون إلى الفاجعة من جهة تأثيرها في العمل. كان موت الأب يعني، في حسابه الصامت، أنَّ الفتى لم يعد يملك رجلاً يعود إليه إذا ضاق به المقام، وأنَّ حاجته إلى الدكان ستزداد، وكلُّ حاجةٍ تزداد تمنح الطرف الآخر مقداراً جديداً من السلطة.

في الأيام التالية عمل نبتُ كأنَّه يريد أن يُنْهك جسده حتى لا يترك للحنن طاقةً يظهر بها. حمل الأكياس الثقيلة، ورتَّب الرفوف، وطاف على البيوت لتحصيل الديون، ثم عاد في المساء يجرُّ قدميه ويبتلع طعامه من غير أن يتذوقه. كان يكتشف أنَّ العمل قد يصير مخدِّراً شريفاً؛ لا يعالج الجرح، لكنه يؤجِّل صوته، ويمنح صاحبه ساعاتٍ ينجو فيها من اجترار ما لا يستطيع تغييره. غير أنَّ الليل كان يعيد إليه أباه كاملاً؛ فكلمها هدأت المدينة وتمدد بين أكياس الدقيق، رأى اليد التي لوَّحت له من قاع الوادي، وشعر أنَّ المسافة التي تركها بينهما لم تعد طريقاً يمكن قطعها، بل برزخاً لا تبلغه قدماه.

وكان يؤلمه أنَّه لم يحضر دفنه، وأنَّه لم يحمل طرف نعشه، ولم يضع حفنة التراب الأخيرة فوق قبره. ظلَّ جزءٌ منه يرفض تصديق الموت؛ لأنَّ العين لم ترَّ الجسد ساكناً، ولم ترَّ الباب يُغلق عليه. وبقي أبوه في ذاكرته واقفاً دائماً عند المفترق، لا حياً يعود ولا ميتاً يكتمل وداعه. ولعلَّ أفسى ما تفعله الحروب أنَّها لا تكتفي بقتل الناس، بل تسرق من أحبَّتهم

طقوس الحزن التي تعين القلب على فهم الغياب؛ فيظلُّ المفقود معلقاً في النفس، ويظلُّ الوداع جملةً لم تُكتب نقطتها الأخيرة.

بعد موت أبيه بأسبوع، ارتفعت أسعار الدقيق والزيت في المدينة. انقطعت الطرق المؤدية إلى الموانئ، وانتشرت أخبارٌ عن قرب حصارٍ طويل، فتدافع الناس إلى الأسواق يشترون ما يستطيعون تخزينه. كان الخوف يسبق الجوع، ويصنعه أحياناً؛ إذ يشتري القادر حاجته وحاجة أشهرٍ مقبلة، فلا يبقى للفقير ما يسدُّ به يومه. وبدأت الرفوف تفرغ سريعاً، بينما صار وجه عبد الودود أكثر يقظةً، كأنَّ الأزمة التي أخافت المدينة أيقظت فيه حاسة الريح.

في ليلةٍ متأخرة وصلت إلى الدكان شاحنةٌ صغيرة تحمل أكياس دقيق. أُدخلت الحمولة من الباب الخلفي، ثم رُصَّت في مخزنٍ ضيق لا يعرفه الزبائن. طلب عبد الودود من نبت أن يُبقي الأمر سرّاً، وأن يخبر من يسأل في الصباح أنَّ الدقيق نفذ. لم يحتج الفتى إلى شرحٍ طويل كي يفهم المقصود؛ كان الرجل ينتظر أن ترتفع الأسعار أكثر، ثم يبيع المخزون بثمنٍ يعجز عنه أكثر الناس.

نظر نبت اليقين إلى الأكياس المصفوفة حتى السقف، ورأى فيها أرغفةً غائبةً عن موائد كثيرة. لم يكن الدقيق في تلك اللحظة سلعةً صامتة، بل جوعاً مؤجلاً في بطون الأطفال، وقلقاً سيبيت في صدور الآباء، ودموعاً ستخفيها أمهاتٌ وهنَّ يقسمن الرغيف القليل بين أفواه كثيرة. وتدكَّر بيتهن في سنوات القحط، حين كانت أمه تكتفي بالماء كي توهم أبناءها أنَّها شبعت، وكيف لم يفهم كذبتها الرحيمة إلا بعد أن كبر ورأى الجوع يضيء عينيها في الظلام.

بات تلك الليلة مثقلًا بالسؤال. كان يعلم أنَّ المال مال عبد الودود، وأنَّ الأيكاس اشتراها من ماله، وأنه لم يسرقها من أحد، لكنَّه كان يعلم أيضًا أنَّ امتلاك الشيء لا يمنح صاحبه حقَّ استخدام حاجة الناس سكينًا يقطع بها من أرزاقهم لنفسه. كانت التجارة في أصلها تبادلاً للنفاع، أمَّا حين ينتظر التاجر اشتداد الجوع ليضاعف الثمن، فإنَّه لا يعود يبيع الطعام وحده، بل يبيع للإنسان حقَّه في البقاء.

فتح المصحف، فقرأ قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلطَّافِينَ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾. شعر أنَّ التطفيف أوسع من نقص خفي في الميزان؛ إنَّه طبيعة نفسٍ تريد حقوقها كاملةً، ثم تقضم حقوق الآخرين كلها ضمنّت عجزهم عن الاعتراض. وقد يكون الميزان حديدًا فوق منضدة بائع، وقد يكون سلطةً أو معلومةً أو ظرفاً استثنائياً يستغله القويُّ ليأخذ أكثر مما يستحق.

في الصباح تجمّع الناس أمام الدكان. جاء رجالٌ يحملون أكياساً فارغة، ونساءً يسألن عن مقدار قليل يكفي أطفالهن، وعجوزٌ ظلَّ واقفاً عند الباب متكئاً على عصاه. وكان نبتٌ يكرّر، كلها سأله أحد، أنَّ الدقيق قد نفذ، فيشعر أنَّ الكذبة تخرج من فمه ثقيلةً ثم تسقط في قلبه. لم تكن جملةً عابرةً يؤدي بها واجبه، بل مشاركةً صامتةً في بناء الجوع.

دخلت امرأةٌ تحمل طفلاً نحيلًا، وفي يدها مبلغٌ قليل. لم تطلب كيساً كاملاً، وإنما طلبت ما تصنع به خبزاً ليومين. أشار عبد الودود إلى الرفوف الفارغة، فانصرفت وهي تضمُّ الطفل إلى صدرها، كأنَّها تعتذر إليه عن عالمٍ لم تستطع أن تجد له فيه طعاماً. حينها أحسَّ نبتٌ أنَّ صمته لم يعد حياداً؛ فالحياد بين الجائع ومن يخفي الطعام ليس وقوفاً في المنتصف، بل انضمامٌ هادئ إلى الطرف الذي يملك المفتاح.

ومع ذلك لم يتصرف فوراً. كان في داخله صوتٌ يذكِّره بأنَّه غريبٌ بلا أسرةٍ قريبة، ولا مال، ولا سقفٍ غير مخزن الدكان. وإذا أغضب عبد الودود فقد يجد نفسه في الشارع، في مدينةٍ لا تعرف اسمه ولا تلتفت إلى الذين ينامون على أرصفتها. أخبره الخوف أن الله لا يكلِّفه بإصلاح السوق، وأنَّ بوسعه أن يرفض بقلبه وينجو بجسده، وأنَّ الحاجة تُبيح للإنسان من الصمت ما لا تبيحه له السعة.

لكنَّه أدرك أنَّ النفس ماهرةٌ في صناعة الفتاوى التي تحمي رغباتها، تسمِّي الخوف حكمة، وتسمِّي التراجع تأنيباً، وتسمِّي التعلُّق بالمصلحة مراعاةً للضرورة. ولم يكن يخشى أن يخسر المأوى بقدر ما خشي أن يبدأ سلسلةً من التنازلات لا يعرف أين تنتهي. فالضمير لا يموت بضربةٍ واحدة؛ إنَّه يضعف كلَّها عرف صاحبه الحقَّ ثم اختار السلامة، حتى يأتي يومٌ يرى فيه الباطل واضحاً ولا يشعر بشيء.

عند الظهيرة، خرج عبد الودود لقضاء حاجةٍ وترك نبتاً في الدكان. ظلَّ الفتى واقفاً خلف المنضدة، يسمع حركة الناس في الخارج ويرى باب المخزن المغلق. كان المفتاح في موضعه المعتاد، قريباً من الميزان. مدَّ يده إليه ثم سحبها. لم يكن فتح المخزن وتوزيع مال الرجل حقاً له؛ فالعدل الذي يدافع به عن الفقراء لا يجيز له أن يظلم صاحب الدكان، ولا يجوز أن يعالج خيانةً بخيانة. لكنه كان يستطيع على الأقل ألا يكذب.

حين جاء أول زبونٍ وسأل عن الدقيق، أخبره نبتٌ أنَّ في المخزن أكياساً، وأنَّ صاحب الدكان يؤخِّر بيعها. قالها بصوتٍ هادئ، لكنه شعر كأنَّه ألقى حجراً في ماءٍ ساكن. انتقل الخبر بين الواقفين، ثم اتَّسعت الدائرة أمام الباب. لم يقتحم أحدُ المخزن، غير أنَّ الوجوه التي كانت تلتقي خبر النفاذ باليأس امتلأت الآن بالغضب، وصار الناس ينتظرون عودة عبد الودود.

عاد الرجل فرأى الحشد، فعرف ما حدث قبل أن يسأل. دخل الدكان وأغلق الباب، ثم نظر إلى نبتٍ نظرةً انتزعت منها بقايا المودّة القديمة. لم يرفع صوته كثيراً؛ فالغضب البارد أشدُّ إذلاًّ من الصراخ. ذكره بأنّه آواه حين لم يجد مأوى، وأطعمه حين جاء بلا مال، وحماه من السؤال، ثم اتهمه بأنّه ردّ المعروف بالخيانة.

وقعت الكلمات على قلب نبتٍ في موضعٍ حساس؛ فقد كان يعرف فضل الرجل ولا ينكره، ويعرف أنّ المعروف دينٌ أخلاقيٌّ، لكنه أدرك أنّ الشكر إذا تحول إلى طاعةٍ عمياء صار صورةً أخرى من العبودية. لم يكن الوفاء أن يساعد من أحسن إليه على الإضرار بالناس، ولا كان ردُّ الجميل أن يضع ضميره في يد صاحبه. إنّ المعروف الحقيقيّ يحرّر الإنسان من الحاجة، أمّا المعروف الذي يُستدعى كلما اختلف صاحبه معك فهو قيدٌ مؤجّلٌ في هيئة إحسان.

لم يُكثر نبتُ الدفاع عن نفسه. قال ما يكفي لإيضاح أنّه لم يفتح الخزن، ولم يأخذ كيساً، ولم يحرّض الناس على الاعتداء، لكنه رفض أن يواصل الكذب. وحين خيره عبد الودود بين الصمت ومغادرة الدكان، شعر أنّ الاختبار الذي قرأ عنه طويلاً قد وصل أخيراً إلى جسده؛ لم يعد الحقُّ فكرةً يتأمّلها تحت ضوء المصباح، بل باباً يُفتح على شارع لا مأوى له فيه.

دخل إلى المساحة الواقعة خلف الأكياس، وجمع ثيابه في حقيبته القماشية. لم تستغرق حياته هناك أكثر من دقائق كي تعود كلّها إلى الحقيبة التي جاءت فيها. وضع المصحف الأخضر فوق الثياب، ثم نظر إلى الموضع الذي نام فيه منذ وصوله؛ كان ضيقاً ومظلماً، لكنه في تلك اللحظة بدا له عزيزاً، فالإنسان يتعلّق حتى بسجنه حين يُفتح بابه على المجهول.

خرج من الدكان في آخر النهار. كان الناس لا يزالون واقفين عند الباب، وقد اضطرَّ عبد الودود، تحت ضغطهم، إلى بيع كمية من الدقيق بالسعر المعتاد. لم يلتفت نبتٌ إلى ذلك بوصفه انتصاراً؛ فقد كان يعرف أنَّ الرجل سيجد طرقاً أخرى لاستعادة ما فاتته، وأنَّ سوقاً كاملاً لا يصلحه موقف فتى واحد. لكنَّه شعر بأنَّه أنقذ شيئاً في داخله، شيئاً صغيراً لا يُطعم جائعاً ولا يوفِّر له سقفاً، لكنه إذا ضاع لم تعد لأيِّ نجاة قيمة.

مشى في الشوارع حتى أظلمت المدينة. لم يكن يعرف أين سينام، وكان المال الذي أعطاه أبوه يتناقص كلما اشترى طعاماً أو ركب حافلة. جلس قرب جدار مسجد كبير، ووضع الحقيبة تحت رأسه. أحاطت به أصوات العابرين، ثم خفت شيئاً فشيئاً، وبقيت أضواء المحال ترسم فوق الرصيف ظلالاً طويلة. شعر بالبرد والجوع والخوف، وسألت نفسه السؤال الذي تسأله النفوس بعد كلِّ تضحية: ماذا تغيَّر؟ لقد بقي الجوع في المدينة، وبقي عبد الودود تاجراً يملك الدقيق، وصار هو بلا عملٍ ولا بيت. فهل كان موقفه شجاعةً أم حماقة؟

أخرج المصحف وفتحته تحت ضوءٍ متسرّب من واجهة متجر، فقراً: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. لم يفهم الآية على أنَّها صفقةٌ يعوِّضه الله بها فوراً عن الدكان؛ فالتقوى ليست مفتاحاً آلياً لخزائن الدنيا، والمخرج قد لا يأتي في الصورة التي يرسمها الخائف. ربما كان أول المخرج أن يخرج الإنسان من الموضع الذي يفسد فيه قلبه، ولو دخل بعده إلى ضيقٍ أشد؛ وربما كان الرزق أن يحفظ الله له نفسه حين تنهاوى النفوس من حوله.

ضمَّ الحقيبة إلى صدره وأغض عينيه. وفيما كان البرد يتسرّب إلى عظامه، تذكَّر أباه وهو يقول إنَّ الفقر عارضٌ يمكن احتماله، أمَّا الذلُّ فإذا استقرَّ في الروح أورثه الإنسان لأبنائه.

عندئذٍ أدرك أنَّ أباه لم يترك له مالا يكفيه، لكنه ترك له ميزانا، وأنَّ بعض الآباء يورثون أبناءهم بيوتاً، وبعضهم يورثونهم القدرة على ألاَّ يبيعوا أنفسهم من أجل بيت.

وقبيل الفجر، أيقظته يدٌ تهزُّ كتفه برفق. فتح عينيه فرأى رجلاً مسناً يحمل كيساً من الكتب، وعلى وجهه لحيةً بيضاء خفيفة وعينان كأنَّهما خرجتا من سنواتٍ طويلة من التأمل. كان الرجل قد رآه نائماً إلى جوار المصحف، وتوقَّف عنده لا بدافع الفضول، بل لأنَّ في هيئة الفتى شيئاً ذكره بنفسه حين جاء إلى المدينة قبل أربعين عاماً، يحمل كتاباً واحداً ولا يملك موضعاً يضع فيه رأسه.

نهض نبتُ اليقين، وحمل حقيبته، وسار خلف الرجل إلى زقاقٍ قديمٍ تمام في آخره مكتبةٌ صغيرة تحت لافتةٍ بهتت حروفها. وحين فُتح الباب، استقبلته رائحة الورق المعتق، ورأى الكتب ترتفع على الجدران حتى السقف، كأنَّها مدينةٌ أخرى داخل المدينة؛ مدينةٌ تحفظ أسماء العابرين، وتمنح الغريب موضعاً بين صفحاتها.

لم يكن يعلم أنَّ دخوله تلك المكتبة سيغيِّر مسار حياته، وأنَّ الرجل الذي فتح له بابها لن يمنحه مأوىً فحسب، بل سيعلِّمه كيف يحوِّل الألم إلى معرفة، والمعرفة إلى موقف، والموقف إلى كلمة. ولم يكن يعلم كذلك أنَّ الكلمات نفسها ستقوده يوماً إلى السجن، وأنَّ السجن سيضعه أمام الاختيار الأعظم: أن ينجو بالصمت، أو يشهد بما رأى ويترك لله أمر النجاة.

الورّاق الذي علّمه كيف يرى

كان اسم الرجل صالح الورّاق، ولم يكن ذلك لقبه الموروث، بل الاسم الذي منحه له المدينة بعد أن أمضى أكثر من أربعين عاماً بين الكتب؛ يشتري قديمها، ويحبر أغلفتها الممزقة، ويمسح الغبار عن صفحاتها، ثم يبيعه بأثمانٍ لا تكاد تكفي لإبقاء مكتبته مفتوحة. وكان يقول في نفسه إنّ بعض الأعمال لا يعيش أصحابها منها بقدر ما يعيشون لها، وإنّ خسارة المال في سبيل معنى تجبّه ليست خسارةً كاملة، ما دام ذلك المعنى يحفظك من التحول إلى آلة تجمع ما لا تحتاج إليه.

تقع المكتبة في آخر زقاقٍ ضيق لا تمرُّ فيه السيارات، وتحفُّ بابها دكاكين النحاسين والخياطين وباعة الأعشاب. كانت لافتتها الخشبية تحمل اسم دار البصيرة، وقد محا المطر بعض حروفها حتى صارت الكلمة لا تُقرأ إلا لمن يعرفها من قبل. وفي الداخل كانت الرفوف تتكى بعضها على بعض كما يتساند الشيوخ، وتبعد فوقها الكتب في صفوفٍ غير منتظمة، مجلّدة بالجلد والقماش والورق المقوّى. بعضها جديداً لامع، وأكثرها حمل آثار الذين قرؤوها: خطوطاً تحت العبارات، وتعليقات في الهوامش، ووروداً يابسة، ورسائل لم تصل إلى أصحابها، وأسماء كتبها بشرُّ ظنوا يوماً أنّ أسماءهم ستظلّ مقرونةً بما يملكون.

منذ أن دخلها نبت اليقين شعر بأنّه أمام حيواتٍ كثيرة لا أمام كتبٍ صامتة. كانت الرائحة التي تملأ المكان مزيجاً من الورق والرطوبة والخبر والخشب القديم، لكنها دخلت صدره كما تدخل رائحة التراب بعد المطر؛ أعادت إليه الإحساس بأنّ ما يبدو يابساً قد يخفي بذوراً تنتظر من يوقظها. وقد أحبّ في المكتبة هدوءها الذي لا يشبه صمت الخوف

في القرية ولا ضجيج العزلة في المدينة؛ كان هدوءاً ممتلئاً بأصواتٍ مؤجلة، يكفي أن يفتح المرء كتاباً حتى تنهض من صفحاته.

أعطاه صالح فراشاً في غرفةٍ صغيرة خلف المكتبة، وترك له طعاماً وموضِعاً يغتسل فيه، ولم يسأله عن قصته في الليلة الأولى. كان يعرف أنَّ بعض البشر إذا أنهكوا بالأسئلة شعروا أنَّ عليهم أن يبرِّروا وجودهم قبل أن يُسمح لهم بالراحة، ولذلك منحه النوم أولاً، ثم ترك الحكاية تأتي حين تستطيع. نام نبتُ ساعاتٍ طويلة، وحين استيقظ وجد الشمس قد تجاوزت منتصف السماء، والمصحف الأخضر موضوعاً قرب رأسه، وفوقه قطعة قماشٍ نظيفة مسح بها الشيخ الغبار عن غلافه.

بدأ العمل في اليوم التالي. كان ينظِّف الرفوف، ويرتب الكتب، ويحمل الصناديق، ويوصل المشتريات إلى بيوت القرّاء. غير أنَّ صالحاً لم يعامله بوصفه يدين إضافيتين في المكتبة؛ فقد لاحظ منذ الأيام الأولى أنَّ الفتى يقرأ عناوين الكتب وهو ينقلها، ويتوقَّف عند الصفحات المفتوحة، ويحمل الورقة كما لو أنَّ فيها شيئاً ينبغي ألا يسقط. فأخذ يضع على طرف فراشه كلَّ ليلة كتاباً يناسب مرحلته: سيرة في ليلة، وديواناً في أخرى، وكتاباً في التاريخ أو اللغة أو طبائع العمران، ثم يراقب أثر القراءة في أسئلته من غير أن يمتحنه.

كان نبتُ اليقين يقرأ بنهم الذي اكتشف فجأة أنَّ العالم أوسع من الجبل الذي أحاط بطفولته. عرف أمماً قامت ثم سقطت، وطغاة ملؤوا زمنهم ضجيجاً ثم لم يبقَ منهم إلا سطرٌ مشوبٌ باللعنة، ومصلحين عاشوا غرباء ثم امتدَّ أثرهم بعد موتهم كأنَّ أعمارهم الحقيقية بدأت حين انتهت أجسادهم. وتعلَّم أنَّ الإنسان لا يولد في زمنه وحده؛ فالقراءة تمنحه أعماراً لم يعيشها، وتضع في يده خبرة الذين جربوا الطريق قبله، لكيلا يبدأ كلُّ جيلٍ من الحفرة نفسها.

لكنه اكتشف أيضاً أنَّ كثرة الكتب قد تربك الإنسان كما تهديه؛ فلكلِّ مؤلفٍ نافذته التي ينظر منها، وبعضهم يظنُّ أنَّ النافذة هي السماء كلها. كان يقرأ رأياً فيطمئنُّ إليه، ثم يجد في كتابٍ آخر ما ينقضه، فيشعر أنَّ عقله ساحةٌ تتقاتل فيها الأفكار. ولم يكن صالحٌ يريده تابِعاً لآخر كتابٍ قرأه، لذلك علَّمه أن يفرِّق بين قوة العبارة وقوة البرهان، وبين الفكرة التي تدهش الذهن والفكرة التي تصمد أمام السؤال، وبين الكاتب الذي يفتح لك أفقاً والكاتب الذي يريد أن يغلق عليك الأبواب كلها إلا بابه.

وأدرك نبتٌ، شيئاً فشيئاً، أنَّ العقل ليس خصماً للإيمان، بل إحدى الأمانات التي أقام الله بها الحجَّة على الإنسان، وأنَّ تعطيله باسم التسليم لَوْنٌ من الجحود بنعمة الله، كما أنَّ تأليهه وادعاء إحاطته بالوجود كله لَوْنٌ آخر من الغرور. فالعقل مصباحٌ عظيم، لكنه لا يصير شمساً مهما اشتدَّ ضوؤه؛ يهدي الإنسان في حدود ما أُعطي، ويقوده إلى أبوابٍ يقف عندها متواضعاً، لا لأنَّه هُزِم، بل لأنَّه عرف حجمه أمام اتساع الحقيقة.

كان صالحٌ قد رأى كثيراً من المثقفين يفقدون تواضعهم أمام أول فكرةٍ أتقنوها، فيتعاملون مع مخالفهم كأنَّهم درجاتٌ أدنى من البشر. ورأى متدينين يحفظون النصوص ثم يستخدمونها لإغلاق العقول وتزكية النفوس وإدانة الخلق، كأنَّ الوحي نزل لينحهم شعوراً بالتفوق لا ليظهرهم من الكبر. ولهذا كان يردُّ نبتاً دائماً إلى السؤال الأصعب: ماذا صنعت المعرفة فيك؟ هل جعلتك أعدل، أم منحت ظلمك لعةً أذكى؟ هل رَقَّ قلبك للضعفاء، أم صرت ترى جهلهم فرصةً لاستعراض علمك؟ وهل قربتك الكتب من الله، أم أقامت بينك وبينه صمّاً جديداً اسمه ذاتك العارفة؟

وجد نبتٌ اليقين في هذه الأسئلة مرآةً لا تتجاهله. فقد أحسَّ أحياناً بلذَّةٍ خفية حين يفهم ما لا يفهمه غيره، ورأى كيف يستطيع العلم أن يتسلَّل إلى النفس فيتحوَّل من طريقٍ إلى

الحقيقة إلى وسيلة لترتيب الناس تحت قدمي صاحبها. وعندئذ صار يعود إلى قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ﴾، فيشعر أن الآية لا تقلل من قيمة المعرفة، بل تحمي صاحبها من الاختناق بها؛ فتفتح فوق كل سقف يبلغه سقفاً آخر، وتردّه من وهم الإحاطة إلى شرف التعلّم الدائم.

مرّت الشهور، وتحولّ الفتى في المكتبة من عاملٍ يرتّب الكتب إلى قارئٍ يعرف مواضعها وأصحابها ومسالك أفكارها. وتعلّم الخطّ على يد صالح، ثم أخذ ينسخ له فهارس الكتب ويكتب أسماء المشتريين. كانت يده في البداية ثقيلةً مضطربة، لكنّها مع التدريب صارت أكثر ثباتاً، كأنّ انتظام الحروف يمنح الفوضى التي في داخله شكلاً يمكن احتماله.

وذات ليلة، بعد أن أغلقا المكتبة، جلس نبتٌ إلى الطاولة الخشبية وأخرج دفتره القديم. ظلّ طويلاً أمام الصفحة البيضاء، ثم كتب عن أبيه. لم يسجل خبر موته كما نقله الرجل القادم من القرية، بل كتب اليد التي أعطته المال عند مفترق الطريق، والظهر الذي ظلّ واقفاً في الوادي، والقرية التي كانت تستيقظ خلفه بينما كان الابن يمضي إلى مصيرٍ مجهول. وحين انتهى، أحسّ أنّه لم يستعد أباه من الموت، لكنه أنقذه من أن يصير مجرد ضحيةٍ مجهولة في حربٍ كثيرة الضحايا.

منذ تلك الليلة صارت الكّابة طريقتَه في مقاومة الفناء. كتب عن أمّه وهي تقسم الخبز وتدعي الشبع، وعن شجرة السدر التي احتلّها المسلّحون، وعن الفتى الذي فتّش حقيبتَه وكادت قدمه تمسّ المصحف، وعن المرأة التي خرجت من دكان عبد الودود من غير دقيق. كان يكتب لأنّه شعر بأنّ الظلم يقتل الإنسان مرّتين: مرّةً حين يقع عليه، ومرّةً حين يُمحي خبره فلا يبقى منه ما يشهد أنّه كان هنا، وأنّه تألم، وأنّ أحداً كان ينبغي له أن يجيب عن ألمه.

لم تكن كتابته ناضجة، وكانت اللغة أحياناً تفيض على المعنى حتى تخنقه، أو يشتد فيها الغضب فيتحوّل الأشخاص إلى شياطين لا ملاح لهم. وحين قرأ صالح بعض الصفحات، نبّهه إلى أنّ الأدب لا يكون صادقاً مجرد أنّ صاحبه غاضب، وأنّ الكاتب إذا جرّد خصمه من إنسانيته كرّر في اللغة الجريمة التي يقاومها في الواقع. فالشر لا يأتي دائماً من مخلوقات ولدت بلا قلوب، بل قد يأتي من بشرٍ خافوا، أو طمعوا، أو أطاعوا، أو أقنعوا أنفسهم أنّ الغاية النبيلة تغسل الوسيلة القذرة. وفهم دوافعهم لا يعني تبرّتهم، لكنه يجعل الرواية معرفةً بالنفس الإنسانية، لا منشوراً قصيراً يوزّع اللغات.

أعاد نبت اليقين كتابة أوراقه، فبدأ يرى أباه خارج صورة الضحية؛ رآه رجلاً ذا أخطاء وصمتٍ طويل، يحبُّ أسرته ولا يعرف كيف يقول ذلك، ويخشى المهانة لأنّ في ماضيه جرماً لم يروه أبناؤه. ورأى عبد الودود لا جشعاً خالصاً، بل فقيراً قديماً ظلّ مذعوراً من عودة الفقر حتى صار يخزّن المال والطعام كأنّه يخزّن الأمان. ورأى الفتى المسلّح طفلاً سابقاً ربما أهين طويلاً، فلما حمل البندقية خشي أن يعود ضعيفاً، فبالغ في إذلال الناس كي يطمئنّ إلى أنّ ضعفه مات.

وهكذا علّمته الكتابة أنّ إدانة الفعل لا تستلزم العمى عن تعقيد فاعله، وأنّ العدل لا يعني تسوية الجاني بالضحية، بل رؤية كلّ واحدٍ منهما كاملاً: الجرح الذي حمله، والاختيار الذي اتخذته، والمسؤولية التي لا يسقطها الجرح. فالإنسان رهين خياراته؛ قد لا يختار الظروف التي تلقى عليه، لكنه يختار ما يسمح لها أن تصنعه في داخله.

بعد عامٍ من وصوله إلى المكتبة، استطاع نبت أخيراً أن يتلقى رسالةً من أمّه. جاءت الورقة مطوية داخل كيس قماشٍ حمله مسافراً عبر طرقٍ متعدّدة. كانت كلمات سكونية قليلة، وخطُّ كاتب الرسالة غير خطّها، لكنها أملت عليه ما يملأ قلبها: أنّها بخير، وأنّ البيت تضرّر

ولم يسقط، وأنَّ قبر أبيه يقع تحت شجرة لوزٍ عند طرف المقبرة، وأنها لا تريد منه أن يعود ما دامت الطريق خطراً. وأخبرته أنَّ أباه، قبل أن يخرج به إلى الوادي، بقي ليلاً يردُّ أنَّ الولد ينبغي أن يعيش لما هو أكبر من الثأر.

توقَّفت نبتٌ عند الجملة الأخيرة طويلاً. لم يعرف هل قالها أبوه بهذه الكلمات فعلاً، أم أنَّ أمّه صاغت من صمته وصيةً تحي بها ابنها من الغضب. لكنه شعر أنَّ المعنى يليق بالرجل الذي عرفه؛ فقد كان أبوه يكره الذلَّ، ولم يكن يحبُّ أن يتحوَّل المظلوم إلى نسخةٍ من ظالمه.

طوى الرسالة ووضعها داخل المصحف عند سورة يوسف. ولم يكن اختياره الموضع مقصوداً في البداية، لكنه حين فتح الكتاب بعد أيام وجدها إلى جوار قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. عندها أدرك أنَّ الصبر في قصة يوسف لم يكن انتظاراً ساكناً، بل رحلةً طويلةً حفظ فيها الرجل طهارة ضميره وهو يُنقل من الجبِّ إلى الرقِّ إلى الفتنة إلى السجن؛ وأنَّ النجاة الحقيقية لم تكن خروجه من السجن فحسب، بل خروجه من كلّ مرحلةٍ من غير أن يسمح لها بتشويه قلبه.

كبرت هذه الفكرة في داخله: قد لا يستطيع اختيار ما يأتيه من العالم، لكنه يستطيع أن يختار الهيئة التي يخرج بها منه. يستطيع السجن أن يحبس جسده، لكنه لا يملك وحده أن يصنع منه عبداً؛ وتستطيع الخيانة أن تجرحه، لكنها لا تستطيع إجباره على أن يصير خائناً؛ ولستطيع الفقر أن يسكن قلبه، لكنه لا يملك أن يحو منه الرحمة إلا إذا سلَّه مفاتيحها.

وبعد عامين، صار نبتُ اليقين شاباً تعرفه وجوهٌ كثيرة في الزقاق. طال جسده، واشتدَّت ملامحه، وبقي في عينيه حزنٌ مبكر يمنحه وقاراً أكبر من عمره. أخذ يكتب مقالاتٍ قصيرةً باسمٍ مستعار، ثم يرسلها إلى صحيفةٍ محلية محدودة الانتشار. كان يكتب عن الغلاء

والنازحين والمعتقلين، وعن اللغة التي تستخدمها الأطراف لتجميل جرائمها. ولم تكن مقالاته صاخبة؛ كان يرى أنَّ الحقيقة لا تحتاج دائماً إلى صوتٍ مرتفع، بل إلى عبارةٍ دقيقة لا يجد الكذب منفذاً بين كلماتها.

نشرت الصحيفة مقالته الأولى تحت عنوان: «حين يصبح الخبز شاهداً». كتب فيها عن التجار الذين يخزّنون الطعام زمن الجوع، وعن السلطات التي تحرس المخازن ولا تحرس بطون الفقراء، وعن المجتمع الذي يلوم المحتاج على انكساره ولا يسأل مَنْ كسر ظهره. ولم يذكر عبد الودود باسمه، لكنه استعاد المرأة التي حملت طفلها وخرجت من الدكان بلا دقيق، وجعل منها امرأةً لمدينةٍ تتحدّث عن الكرامة بينما تترك أماً تعتذر لابنها عن عجزها عن إطعامه.

في صباح نشر المقال، دخل رجلان إلى المكتبة واشترى نسخةً من الصحيفة من البائع المجاور، ثم وقفا عند الباب يتأمّلان نبأً أكثر مما يتأمّلان الكتب. لم يسألا عنه، ولم يذكر المقال، لكنّ صالحاً عرف من هيتهما أنَّ الكلمة التي خرجت من المكتبة بدأت تجذب عيوناً لا تقرأ لتفهم، بل تقرأ لتعرف مَنْ ينبغي إسكاته.

انتظر حتى غادر الرجلان، ثم نظر إلى نبأ اليقين طويلاً. كان يستطيع أن يطالبه بالتوقّف حمايةً له وللمكتبة، لكنه عرف أنَّ التربية التي تمنح الإنسان بصيرةً ثم تطلب منه أن يعميها عند أول خوف ليست تربية، بل إعدادٌ لطاعة أكثر تهذيباً. ومع ذلك أدرك الشيخ أنَّ الفتى يحتاج إلى تعلّم الفرق بين الشجاعة والتهور، وأنّ الكلمة ليست طاهرةً لمجرد أنّها كلّفت صاحبها ثمناً؛ فلا بدّ أن تكون صحيحةً، ضروريةً، محسوبة الأثر، وآلاً تختلط فيها رغبة الشهادة للحقّ برغبة خفية في أن يصفّق الناس لجرأة الكاتب.

في تلك الليلة قرأتُ قول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، فشعرتُ
الآية لا تراقب أكاذيب اللسان وحدها، بل تضع الكتابة كلها تحت ثقل المسؤولية. فالكلمة
قد تهدي خائفاً، وقد تدفع جاهلاً إلى هاوية، وقد تكشف ظالماً، وقد تظلم بريئاً بظنٍ
متعجلٍ. ومن يكتب للناس لا يملك رفاهية أن يعامل اللغة كزينةٍ أو سلاحٍ أعمى؛ إنه يضع
أثراً في الأرواح، وكلُّ أثرٍ سيعود يوماً إلى صاحبه.

أمسك قلبه، وبدأ يكتب المقال الثاني. وكان عنوانه: «البلاد التي تخاف من المرأة».

لم يكن يعلم أنَّ الرجلين اللذين وقفاً أمام المكتبة سيعودان، ولا أنَّ اسمه المستعار قد
انكشف، ولا أنَّ المدينة التي تجاهلت وصوله إليها ستذكر اسمه الآن؛ لا لأنها أحبته، بل
لأنَّ كلمةً كتبها جعلت أصحاب القوة يشعرون للحظةٍ أنَّ رجلاً فقيراً، لا يملك إلا قلباً
ومصحفاً أخضر، استطاع أن يراهم من وراء جدرانهم.

البلاد التي تخاف من المرأة

لم يكتب نبتُ اليقين مقالته الثانية بروح الرجل الذي يبحث عن خصومة، بل بروح الإنسان الذي أعجبه أن يرى وطنه يُدفع كلَّ يومٍ إلى هاوية، ثم يسمع الذين يدفعونه يتحدثون عن النجاة. كان قد تعلَّم من صالح الوراق أنَّ الكلمة التي تولد من الكراهية قد تصيب خصمها، لكنها تترك في صاحبها جرحاً آخر؛ لذلك قاوم رغبته في التشهير، ونقَّى عباراته من الشتيمة، وأبقى الوقائع عاريةً إلا من دلالتها.

كتب أنَّ البلاد لا تسقط حين يكثر فيها الفقراء وحدهم، بل حين يصبح الفقر تهمةً والثراء المشبوه وجاهة، وحين تُقاس الوطنية بالقرب من الحاكم لا بالوفاء للحق، وحين تُفتح السجون للأسئلة وتُفتح المناير للأكاذيب. وكتب أنَّ السلطة التي تخاف من المرأة لا تكسر صورتها فيها، بل تكسر المرأة وتظنُّ أنَّ القبح اختفى؛ وأنَّ الأوطان لا تحتاج إلى مواطنين يردِّدون سلامتها بينما يرون جراحها، بل إلى قلوبٍ تحبُّها بما يكفي لتمنع قاتليها من احتكار اسمها.

وحين بلغ خاتمة المقال، توقَّف طويلاً. كان يستطيع أن يختبئ خلف اللغة العامة، وأن يترك عباراته معلقةً بحيث يفهمها الجميع ولا يستطيع أحدٌ محاسبته عليها. غير أنَّه شعر بأنَّ الغموض إذا استخدم لسر الخوف لم يعد فناً، بل صار حجاباً بين الكاتب ومسؤوليته. فكتب عن المعتقلين الذين يُنتزعون من بيوتهم بلا تهمة، وعن الآباء الذين يعودون إلى أسرهم محطَّمين أو لا يعودون، وعن الجهات التي تتزيَّن بشعارات الدين ثم تنتهك الإنسان الذي جعله الله مكرَّماً.

لم يذكر أباه. كان يخشى أن يختلط العام في مقاله بشأره الخاص، فيستخدم آلام الناس لتصفية حسابه مع قاتليه. لكنه حين انتهى أدرك أن كل سطر كتبه كان يمر من قبر أبيه؛ وأن الإنسان مهما حاول التجرد لا يكتب من فراغ، بل من جرح علّيه أين يقع الألم في أجساد الآخرين.

أرسل المقال إلى الصحيفة، ونُشر بعد تردّد وحذف بعض عباراته. وفي اليوم التالي، انتقل بين القراء أسرع من المقال الأول. صورّه بعضهم ووزّعوه في الأسواق والجامعات، وقرأه مدرّس لطلابه، وردّده خطيب من غير أن يذكر صاحبه. ولأول مرة شعر نبت بلذّة الأثر؛ تلك اللذّة التي قد تكون شكراً لله على وصول الحق، وقد تنقلب، إن لم ينتبه صاحبها، إلى عبادة خفيّة لصورته في عيون الناس.

أخذ يراقب نفسه بحذر. كان يفرحه أن يسمع الثناء، ثم يخجل من فرحه، ثم يدرك أن النفس لا تطهر بإنكار طبيعتها، بل بمراقبتها وردّها إلى قصدتها كلما انحرفت. لم يكن مطلوباً منه ألا يشعر بسرور النجاح، وإنما ألا يجعل ذلك السرور هو الغاية التي يكتب من أجلها؛ فالشهرة قد تبدأ بوصفها أثراً للعمل، ثم تتسلّل حتى يصير العمل أثراً لها، وعندها يكتب الإنسان ما يرضي جمهوره لا ما يرضي ضميره.

قرأ ذات مساء قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فتوقّف عند كلمة ﴿وَمَحْيَايَ﴾. شعر أنها أوسع من العبادات المفردة؛ إنها تستردّ الحياة كلّها من التبعض، وتجعل الكتابة والعمل والحبّ والخوف والموقف أجزاء من وجهة واحدة. وما لم يكن للإنسان مركز يردّ إليه أفعاله، عاش موزّعاً بين نظرات الناس، يعلو بمدحهم ويسقط بذمّهم، حتى يصبح قلبه ساحة عامة يدخلها كلّ عابر.

بعد أيام عاد الرجلان إلى المكتبة. دخلا هذه المرة من غير أن يتظاهرا بشراء الكتب، وسألا عن صاحب المقال. كان صالح يجلس وراء طاولته يصلح غلاف مخطوط قديم، فرفع رأسه إليهما وأدرك أن الخوف الذي ظلّ واقفاً عند الباب قرّر الدخول. لم ينظر إلى نبت، ولم يحاول إنكار معرفته، لكنه أجاب بما لا يسلم إنساناً ولا يصنع كذبة واضحة. غير أن الرجلين كانا يملكان من المعلومات أكثر مما توقع؛ ذكرا الاسم المستعار، وتاريخ إرسال المقال، بل وصفا الظرف الذي وُضع فيه.

فهم نبت اليقين أن البحث لم يعد عنه بوصفه كاتباً مجهولاً، بل بوصفه اسماً ووجهاً ومكاناً. تقدّم من بين الرفوف قبل أن يُجبر صالح على مزيدٍ من المراوغة. لم يشعر ببطولة في تلك اللحظة؛ شعر ببرودة تسري في أطرافه، وقلبه يضرب صدره بعنف، وبحاجة مفاجئة إلى أن يعود فتى يركض في الوادي ولا يعرف شيئاً عن السلطة والمقاتلات والسجون. لقد بدا الحق جميلاً وهو يُكتب على الورق، أمّا حين دخل رجلان لاقتلاع صاحبه من حياته، فقد انكشف الثمن الذي كانت الكلمات تؤجّله.

اقتاده إلى مبنى رمادي في طرف المدينة، بلا لافتة تدلّ على الجهة التي تشغله. كانت النوافذ مرتفعة محروسة بقضبان حديدية، والممرات ضيقة تفوح منها رائحة العرق والرطوبة والخوف القديم. أخذوا منه حقيبته ودفتره والمصحف الأخضر، ثم أجلسوه على كرسيٍّ أمام مكتبٍ واسع، وراه رجلٌ ممتلئ الجسد، هادئ الصوت، يتسم كما لو أنّ ما يجري حوار بين صديقين.

كان المحقّق من ذلك النوع الذي يعرف أن الهدوء قد ينتزع من الخائف ما لا ينتزعه الصراخ. بدأ بأسئلة بسيطة عن اسمه وقرينه وعمله، ثم انتقل إلى الصحيفة، وصالح الأوراق،

والذين يزودونه بالمعلومات. وكان نبتٌ يوجب عن نفسه ويتوقّف عند أسماء الآخرين؛ إذ لم يكن يملك الحقّ في شراء سلامته بأبواب بيوتهم.

وضع المحقّق أمامه نسخاً من المقالين، وحدّد بالقلم الأحمر العبارات التي تتحدّث عن المعتقلين والجوع وتجارة الحرب. لم يناقشه في صحتها، بل سأله عمّن يقصده بها، كأنّ الجريمة ليست وجود السجون والاحتكار، بل الإشارة إليهما. أدرك نبتٌ أنّ بعض السلطات لا تنزعج من الكذب لأنّه يناقض الحقيقة، بل تنزعج من الحقيقة لأنّها تناقض الرواية التي تريد للناس أن يعيشوا داخلها.

لم يكن المطلوب منه اعترافاً كبيراً. عرضوا عليه أن يوقّع تعهداً بترك الكتابة في الشأن العام، وأن يكتب مقالاً قصيراً ينفي فيه وجود الاعتقالات التعسفية، ويشيد بالجهود التي تبذلها السلطة لحماية المجتمع. كان الباب إلى الخارج قريباً إلى حدٍّ موحع؛ ورقة واحدة، وكلماتٌ يستطيع بعد ذلك أن يقول لنفسه إنّه كتبها تحت الإكراه، ثم يعود إلى المكتبة وفراشه وكتبه.

للحظةٍ بدت النجاة سهلة. تذكّر أمّه التي بقيت وحدها، وتخيل خبر اعتقاله يصل إليها فيكسر ما بقي من قلبها. وتذكّر صالحاً الذي قد تغلق مكتبته بسببه، وفكر في أنّ السجن لا يكتب ولا يساعد أحداً، وأنّ الحرية المؤقّته قد تمنحه فرصةً ليوصل عمله بطريقةٍ أكثر حذراً. كانت الحجج تتكاثر في رأسه، وكلُّ واحدةٍ تحمل جزءاً من الصواب؛ وهذا ما يجعل الاختبارات الأخلاقية قاسيةً، فالباطل لا يأتي دائماً عارياً، بل يرتدي شيئاً من الحكمة ليصبح أكثر إقناعاً.

لكنّه رأى المرأة التي خرجت بلا دقيق، ورأى أباه ينزف على طريق القرية، ورأى أولئك الذين اختفوا في السجون من غير أن يجدوا من يشهد بوجودهم. وإذا كتب أنّ ما جرى لم

يجرّ، فلن تكون مقالته مجرد كلماتٍ تحت الإكراه، بل حجراً آخر يُضاف إلى الجدار الذي يججب المظلومين. كان يستطيع الصمت، فالصمت تحت القهر ضعفٌ بشريٌّ قد يُعذر صاحبه، أمّا أن يمنح الكذب اسمه وقلبه، فذلك انتقالٌ من العجز عن نصره الحقيقة إلى المشاركة في خنقها.

امتنع عن التوقيع.

لم يقل خطبةً، ولم يتحدّ المحقّق، ولم يدّع أنّه لا يخاف. قال فقط إنّ لا يستطيع أن يشهد بما يعلم أنّه غير صحيح. كانت جملته قصيرةً، لكنّها أغلقت الباب الذي ظلّ مفتوحاً أمامه. اختفت الابتسامة من وجه الرجل، وجمعت الأوراق، ثم نُقل نبتٌ إلى غرفة ضيقة ليس فيها إلا كرسيٌّ معدني ومصباحٌ شديد البياض.

بدأ التحقيق الثاني بعد منتصف الليل. تغيّرت الأسئلة ونبرة الأصوات، وصار المطلوب أسماء أشخاصٍ قيل إنّهم يحرّكونه من خلف الستار. حاول أن يشرح أنّه كتب ما رآه، وأنّ الجائع لا يحتاج إلى مؤامرة كي يشعر بالجوع، وأنّ ابن القليل لا يحتاج إلى جهة أجنبية كي يفهم قسوة القتل. لكنّ الأنظمة التي لا تتصوّر أن يكون للإنسان ضميرٌ مستقلٌّ تبحث دائماً عن محرّكٍ خفي، لأنّها تقيس الآخرين على أتباعها، فلا تصدّق أنّ أحداً قد يتخذ موقفاً من غير راتبٍ أو أمرٍ أو وعد.

تعاقت الساعات، وحُرم من النوم والماء، وظلّ المصباح مسلطاً على عينيه. لم يكن الألم الجسديّ هو الأشد، بل محاولة تحويله في نظر نفسه إلى كائنٍ ضئيل لا قيمة له؛ يكرّرون أنّ أحداً لا يعرف مكانه، وأنّ الصحيفة ستبترأ منه، وأنّ صالحاً سينكر صلته به، وأنّ أمّه قد تموت قبل أن تعرف مصيره. أرادوا أن يقنعوه بأنّ وحدته دليلٌ على خطئه، وأنّ الحقيقة إذا لم تملك جيشاً يحميها صارت وهماً لا يستحقّ التضحية.

عند الفجر، أُعيد إلى الغرفة وحده. لم يكن فيها نافذة، ولم يعرف دخول الصباح إلا من تغير الأصوات في الممر. جلس على الأرض وأسند ظهره إلى الجدار، ثم تحسّس صدره كأنّه يبحث عن المصحف الذي نُزع منه. شعر للمرة الأولى بمدى تعلّقه بالغلاف والصفحات؛ فقد كان الكتاب حاضراً في محطات خوفه كلّها، وها هو الآن يدخل الاختبار من غير أن يلمسه.

لكنّ الآيات التي عاش معها لم تكن محبوسةً في الحقيقة. نهضت في ذاكرته واحدةً بعد أخرى، حتى استقرّت نفسه عند قول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. لم ير فيها وعداً بأنّ الباب الحديدي سيفتح في الحال، بل سؤالاً يهدم سيادة الخوف: إذا كان الله كافياً لعبده، فما الذي يستطيع السجّان أن ينتزعه منه ما لم يسلبه العبد بيده؟ قد يأخذ نومه وحرّيته وسلامة جسده، لكنّه لا يستطيع أن يأخذ صدقه إلا إذا اختار هو الكذب، ولا يستطيع أن يقطع صلته بالله إلا إذا انحنى قلبه لغيره.

ردّد الآية حتى أحسّ أنّ الغرفة الضيقة تتسع من داخلها. لم تتغير الجدران، لكنه تغير في مواجهتها. أدرك أنّ الحرية ليست غياب القيود وحده؛ فقد يعيش الإنسان خارج السجن أسيراً لخوفه، وقد يدخل السجن وفي قلبه مساحةٌ لا يصل إليها سجّانه. وليست هذه المساحة خيالاً يخفّف الألم، بل موضع القرار الأخير في الإنسان: ذلك الموضع الذي يقول فيه نعم أو لا، ويحدّد به مَنْ يكون، ولو صودر كلُّ شيءٍ آخر.

عند الظهيرة فُتح الباب، ودُفع إليه رجلٌ خمسينيّ نحيل، على جبينه أثر جرح قديم، وفي عينيه سكونٌ غير مألوف. جلس الرجل في الزاوية المقابلة، ولم يسأل نبتاً عن اسمه ولا عن تهمة. كان يعرف أنّ السجّناء يحتاجون أولاً إلى الاطمئنان إلى صمت رفاقهم قبل أن يمنحهم شيئاً من حكاياتهم.

مرَّ يومان بينهما بقليلٍ من الكلام. عرف نبتٌ أنَّ الرجل يدعى مروان السالمي، وأنَّه معلِّمٌ تاريخٍ اعتُقلَ لأنَّه رفض تغيير واقعةٍ في كتابٍ مدرسيٍّ كي تناسب الرواية الجديدة للسلطة. لم يحمل سلاحاً، ولم ينتمِ إلى تنظيم، ولم يدعُ إلى تمرد؛ كانت جريمته أنَّه آمن بأنَّ الأجيال التي تفقد تاريخها تصبح مادةً طيِّعةً في يد مَنْ يكتب لها ذاكرةً على مقاسه.

لم يقدِّم مروان نفسه بطلاً. اعترف بأنَّه خاف، وأنَّه كاد يوقَّع، وأنَّه أمضى ليالي يوم فيها نفسه لأنَّ أبنائه يدفعون ثمن موقفه. لكنَّه أدرك أنَّ المعلِّم الذي يزور صفحة اليوم حمايةً لأبنائه قد يترك لهم غداً وطناً كاملاً مبنياً على الكذب. وكان وجعه الأكبر أنَّه لم يعرف هل كان قراره إخلاصاً للحق أم قسوةً على أسرته؛ فالنوايا البشرية لا تأتي صافيةً دائماً، وقد يختلط في الموقف النبيل شيءٌ من العناد والكبرياء.

أحبَّ نبتٌ فيه هذا الصدق. فقد تعلَّم أنَّ المؤمن ليس إنساناً بلا ارتباك، وأنَّ اليقين لا يلغي الأسئلة، بل يمنحها من أن تتحوَّل إلى آلهةٍ تطاع. وقد يقف المرء عند حدود ما لا يستطيع عقله بلوغه، لا هرباً من التفكير، بل اعترافاً بأنَّ معرفته جزءٌ صغير من حكمةٍ لا يحيط بها. كان نبتٌ لا يعرف لماذا قُتل أبوه، ولا لماذا بقيت أمُّه وحدها، ولا ماذا سينتج عن حبسه؛ لكنه عرف ما يجب عليه ألا يفعله في هذه اللحظة، وكانت هذه المعرفة المحدودة كافيةً للخطوة التالية.

في الليلة الثالثة، سمعا صراخ سجينٍ في الغرفة المجاورة. ظلَّ الصوت يرتفع ثم ينقطع ثم يعود، حتى صار الصمت بين الصراخات أشدَّ رعباً منها. أغمض نبتٌ عينيه، وشعر بالعجز يملأ جسده. لم يستطع إنقاذ الرجل، ولا حتى معرفة اسمه. عندها أدرك أنَّ الشرَّ لا يؤلِّنا بما يفعله فحسب، بل بما يكشفه من ضآلة قدرتنا. ومع ذلك رفض أن يجعل العجز ذريعةً للنسيان؛ حفظ إيقاع الطرقات، وعدد المرات التي فُتح فيها الباب، والساعة التقريبية التي

توقّف فيها الصوت. لم يكن يعرف كيف سيستخدم هذه التفاصيل، لكنه شعر أنّ الشهادة تبدأ أحياناً من الذاكرة.

بعد أسبوعٍ أعادوه إلى غرفة التحقيق، ووضعوا أمامه التعهد ذاته. كان جسده أضعف، وعينه محمّرتين من السهر، ورائحة السجن قد استقرّت في ثيابه. أخبروه أنّ صالح الورّاق مريض، وأنّ المكتبة أُغلقت، وأنّ بقاءه في السجن لن يغيّر شيئاً. ثم وضعوا إلى جوار الورقة مصحفه الأخضر، كأنّهم أرادوا أن يجعلوا الكتاب شاهداً على انكساره.

مدّ يده إلى المصحف، ومرّر أصابعه فوق الغلاف. وحين فتحه سقطت منه رسالة أمّه، مطويةً عند سورة يوسف. قرأ بعينه المرتجتين الجملة التي حملها إليه: إنّ أباه أراد أن يعيش لما هو أكبر من الثأر. وشعر أنّ ما هو أكبر من الثأر ليس الصمت عن الظلم، بل مقاومته من غير أن يتحوّل إلى كراهيةٍ عمياء؛ وأنّ الوفاء لأبيه لا يكون بأن يموت مثله، ولا بأن ينتقم له، بل بأن يحفظ المعنى الذي مات وهو يحاول حماية ابنه من أجل أن يعيشه.

رفع رأسه، وأعاد الورقة من غير توقيع.

في تلك اللحظة لم يشعر بالقوة، بل بشيءٍ أهدأ وأعمق: شعرا أنه صار متّسقاً مع نفسه، وأنّ المسافة بين ما يؤمن به وما يفعله قد ضاقت حتى كادت تختفي. وربما كان ذلك هو فنّ الوجود الذي ظلّ يبحث عنه من غير أن يسمّيه؛ ألا يعيش الإنسان ممزّقاً بين ضميرٍ يعرف ولسانٍ ينكر، وبين عقلٍ يبصر وقدمين تمضيان في الطريق المقابل.

أُعيد إلى زنزانه، وأُغلق الباب. جلس إلى جوار مروان، وأسند رأسه إلى الجدار. كان يعرف أنّ الأيام المقبلة قد تكون أشدّ، وأنّ الثبات الذي نجح فيه اليوم لا يضمن ثباته غداً؛ فالقلوب تثقل، والأجساد لها حدود. لذلك لم يثق بنفسه ثقةً مطلقة، بل رفع حاجته إلى الله، واستعاد دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.

وفي آخر الممر، كان سَجَّانٌ شابٌّ قد سمع رفضه للتوقيع. ظلَّ ذلك السجَّان يتأمل الباب المغلق، وفي داخله سؤالٌ صغير بدأ يتحرَّك للمرة الأولى: أيُّهما كان سجيناً حقّاً؛ الرجل الذي رفض أن يبيع كلمته، أم الرجل الذي يملك المفتاح ولا يستطيع أن يرفض أمراً؟

السَّجَّانُ الَّذِي كَانَ يَحْتِثُ عَنْ بَابِ

كان اسم السَّجَّانِ سالماً، ولم يكن في ملاحه ما يدلُّ على القسوة التي التصقت في خيال نبتُ اليقين بكلِّ مَنْ يحمل مفاتيح الزنازين. كان شاباً في الثالثة والعشرين، نحيلاً، صاحب الوجه، تتحرَّك عيناه في الممرات بحذر مَنْ يخشى أن يُراقب وهو يراقب الآخرين. ارتدى بَزَّتِه أول مرة معتقداً أنَّها ستمنحه راتباً يحمي أسرته من الجوع، ثم اكتشف أنَّ كلَّ راتبٍ يُدفع من مؤسسة الخوف يحمل معه طاعةً لا تظهر كاملةً في عقد العمل.

جاء سالم من قريةٍ أشدَّ فقراً من قرية نبت، وكان أكبر إخوته السبعة. مات أبوه بمرضٍ كان يمكن علاجه لو وصل إلى طبيبٍ في الوقت المناسب، ثم بقيت أمُّه بين ديونٍ متراكمة وأطفالٍ ينتظرون الخبز. بحث الشاب عن عملٍ فلم يجد سوى هذا المبنى الرمادي الذي لا يحمل لافته، وقيل له إنَّ مهمته حراسة أعداء البلاد. لم يسأل يوماً عن معنى العدو، فقد كان الجوع أكثر إقناعاً من الأسئلة، وكان الراتب القليل يبدو كأنَّه الجواب الوحيد الذي يستطيع أن يحمله إلى أمِّه.

في الأشهر الأولى أقنع نفسه أنَّ الذين خلف الأبواب مجرمون، وأنَّ القسوة التي يسمعونها ليلاً ضرورةٌ لحماية الناس. وحين رأى رجلاً مسناً يُصفع لأنَّه تأخر في الإجابة، قال في نفسه إنَّ المحققين يعرفون ما لا يعرفه. وحين اختفى معتقلاً من سِجْلِ الغرف، صدَّق أنَّه نُقل إلى مكانٍ آخر. كان كلُّ تفسيرٍ يمنحه ليلةً إضافية من النوم، حتى تراكت الوقائع التي لا يمكن للكلمات المريحة أن تسترها.

تعلم سالم أنَّ الإنسان لا ينتقل من البراءة إلى الجريمة بخطوةٍ واحدة، بل يعبر إليها فوق جسرٍ من الأعذار الصغيرة. يبدأ بتنفيذ أمرٍ يكرهه لأنَّه محتاج، ثم يعتاد رؤية ما كان يكرهه، ثم يدافع عنه لأنَّ الاعتراف بقبحه سيجبره على رؤية نفسه شريكاً فيه. وبمرور الوقت يصير الحفاظ على صورته أمام نفسه أهمَّ من إنقاذ ضحيته، فيغدو أشدَّ قسوةً على كلِّ مَنْ يذكِّره بالحقيقة التي هرب منها.

غير أنَّ نبتَ اليقين أربك الصورة التي بناها سالم عن السجناء. لم يكن متآمراً ذا وجهٍ غامض، بل شاباً فقيراً يشبهه، فقد أباه في الحرب، وعمل لقاء مأواه، ولم يحمل غير دفترٍ ومصحف. وحين رفض التوقيع لم يفعل ذلك بصخبٍ يستعرض به شجاعته، بل بخوفٍ ظاهرٍ جعل رفضه أشدَّ أثراً؛ فالشجاعة التي لا تعرف الخوف قد تكون جهلاً بالخطر، أمَّا الشجاعة التي ترى الخطر كاملاً ثم لا تسمح له بتحديد الصواب، فهي التي تفضح جن المتفجرين.

بدأ سالم يضع قرب ززانة نبت جرة ماءٍ أنظف من الماء المعتاد، ويؤخِّر إطفاء الضوء دقائق كي يتمكن السجنان من الصلاة. لم تكن أفعاله بطولاً، بل محاولاتٍ صغيرةً ليقنع نفسه أنَّه لم يفقد إنسانيته كلَّها. وكان نبت يلاحظ ذلك من غير أن يخرجه بالشكر؛ لأنَّ الخير حين يولد في مكان الخوف يكون هشاً، وقد تقتله نظرةٌ تكشفه قبل أن يشتدَّ عوده.

مرَّت الأيام بطيئةً، وانكش العالم إلى غرفةٍ رطبةٍ وممرٍ قصيرٍ وفتحةٍ ضيقةٍ يمرُّ منها الطعام. لكنَّ نبتاً اكتشف أنَّ المكان المحدود قد يفتح في النفس مساحاتٍ لم تكن تراها في الخارج. ففي المدينة كان يهرب من حزنه بالعمل والقراءة والكتابة، أما في السجن فقد سُحِبَ منه الأشياء التي تشغله، وبقي وحيداً أمام نفسه. ظهرت له مخاوفه القديمة، وغضبه

من قاتلي أبيه، وحنينه إلى أمه، ورغبته الخفية في أن يعرف الناس ثباته. ورأى أن السجن لا يكشف وجه السلطة وحده، بل يكشف للسجين الوجوه التي يخفيها عن نفسه.

كان مروان يساعده على احتمال العزلة بما حفظه من الشعر والتاريخ، لكنه لم يحوّل الزنزانة إلى مجلسٍ دائمٍ للكلام؛ فقد أدرك كلاهما أن كثرة الحديث في السجن قد تكون فراراً من الصمت الذي ينبغي اجتيازه. وكانا يجلسان ساعاتٍ لا يتبادلان إلا الإشارة، بينما يرتّب كلُّ منهما خرابه الداخلي، ويحاول أن يميّز بين الأسئلة التي يمكن للعقل أن يتقدّم فيها، والأسئلة التي لا يملك أمامها إلا الصبر والتسليم.

لم يكن نبتُ اليقين يرى في التسليم إلغاءً للعقل؛ فالعقل هو الذي قاده إلى إدراك حدوده، كما تقود العين صاحبها إلى حافة الجبل ثم تخبره أن ما وراء الأفق موجودٌ وإن لم تره. وكان يشعر أن بعض الناس يرفضون كلَّ ما لا تحيط به عقولهم، كأنّ الوجود مطالبٌ بأن يتقلّص حتى يدخل رؤوسهم. أمّا الإيمان فقد منحه تواضعاً معرفياً لا يهدم السؤال، بل يطهره من الغرور؛ يسأل ما دام السؤال طريقاً، ثم يقف حين يتحوّل إلحاح إلى اعتراضٍ على حكمةٍ لم يُعط أدوات الإحاطة بها.

وكان أشدُّ ما يسأله في وحدته: لماذا لم ينجُ أبوه مع أنّه لم يطلب حرباً؟ ولماذا بقي قاتلوه يحملون السلاح بينما صار جسده تراباً؟ لم يجد جواباً يطفى الوجد، لكنه وجد في القرآن ما يمنع السؤال من أن يتحوّل إلى اتهامٍ لله. قرأ في ذاكرته قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، ففهم أنّ تأخر الحساب لا يعني غياب العدل، وأنّ الإنسان يخطئ حين يريد من الدنيا أن تؤدي وظيفة الآخرة كاملةً؛ فالدنيا ميدان امتحانٍ تتأخّر فيه بعض الإجابات، ولو أغلق كلُّ ملفٍ فيها بعد وقوعه لما بقي للغيب معنى، ولا للصبر مقام، ولا ليوم الدين ضرورة.

لكنَّ الإيمان بالعدل الآتي لم يكن عنده مبرراً لترك العدل الممكن. فالذي يؤمن بأنَّ الله سيحاسب الظالم لا يعني نفسه من مقاومة الظلم بما يستطيع، وإنما يتحرَّر من اليأس حين تعجز قدرته عن إكمال ما بدأه. كان نبت يعلم أنَّه لا يستطيع هدم السجن، لكنه يستطيع ألاَّ يصبح شاهد زورٍ له؛ ولا يستطيع ردَّ أبيه إلى الحياة، لكنه يستطيع أن يمنع موته من أن يُستخدم لإنتاج قاتلٍ جديد.

وفي إحدى الليالي أعادوا مروان من التحقيق محمولاً بين رجلين. كان وجهه متورماً، وأنفاسه قصيرة، ولم يستطع الوقوف. وضعوه على الأرض وأغلقوا الباب. اقترب منه نبت، وأسند رأسه إلى ساقه، وسقاه قطراتٍ من الماء. بقي المعلم بين الوعي والغيبوبة، يفتح عينيه ثم يفقدهما، بينما كان نبت يشعر بعجزه القديم يعود: العجز الذي عرفه حين تخيَّل أباه ينزف بعيداً عنه، والمرأة تخرج بلا دقيق، والسجين المجهول يصرخ خلف الجدار.

ظلَّ إلى جواره حتى الفجر. ومع أول ضوءٍ متسرِّب من فتحة الباب، توقف صدر مروان عن الحركة.

في البداية ظنَّ نبتُ أنَّه أغشي عليه، ثم وضع أذنه قرب فمه فلم يسمع نفساً. أمسك معصمه، وانتظر نبضةً لم تأت. وكان الموت في الزنزانة أكثر برودةً من الموت في الحكايات؛ لا جنازة، ولا أهل، ولا وجه يُقبل للمرة الأخيرة، بل جسدٌ ممدَّد على أرضٍ رطبة وبابٌ حديدي لا يبالي بمن توقف قلبه خلفه.

طرق نبت الباب بعنف، فجاء سالم. وحين رأى الجسد تجمَّد في موضعه؛ فقد كان يعرف أنَّ مروان دخل التحقيق على قدميه، وأنَّ السجِّل سيقول إنَّه مات بعارضٍ صحي. دخل رجالٌ آخرون، وحملوا الجثمان من غير اكتراث، ومسح أحدهم موضعه بالماء، كأنَّ حياة المعلم لم تكن سوى بقعةٍ ينبغي تنظيفها قبل وصول سجينٍ جديد.

بقي نبتُ اليقين وحده. نظر إلى المساحة التي كان يجلس فيها مروان، وشعر أنَّ الزنزانة اتسعت فجأةً واتسعت معها الوحشة. كان يريد أن يصرخ، لكنه خشي أن يتحوَّل صراخه إلى صوتٍ آخر يبتلعه الممر. فجلس يحفظ ما رأى: الساعة، وهيئة الجسد، وأثر الجروح، وأسماء الذين حملوه. أدرك أنَّ الذاكرة في بلاد القمع ليست مستودعاً للماضي، بل شكلٌ من أشكال المقاومة؛ لأنَّ الجلاد لا يكتفي بأن يقتل، بل يحتاج إلى أن يسيطر على رواية القتل، وأن يقنع الناس بأنَّ الضحية لم تكن موجودة أو أنَّها استحقَّت مصيرها.

تذكَّر قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾. توقَّف عند نسبة الإثم إلى القلب؛ فكتمان الشهادة لا يلوِّث اللسان وحده، بل يفسد الموضع الذي يميِّز فيه الإنسان بين نفسه وظلِّه. وربما ينجو الكاتم من أذى الناس، لكنه يحمل في داخله قبراً للحقيقة التي دفنها بيديه.

في المساء دخل سالم حاملاً الطعام، فوضعه وانصرف، ثم عاد بعد دقائق كأنَّه نسي شيئاً. كان وجهه مضطرباً، وعيناه لا تستقران على موضع. أخرج من ثيابه قصاصةً صغيرة ودفعها تحت الفراش. لم يقل ما فيها، لكنَّ نبتاً وجد، بعد أن أغلق الباب، اسم مروان كاملاً، وتاريخ دخوله السجن، ورقم الملف، واسم الضابط الذي أشرف على التحقيق الأخير.

أمسك القصاصة وشعر بثقلها. لم تكن ورقةً فحسب، بل الخطوة الأولى التي عبر بها سالم من موقع المتفرِّج إلى خطر الشهادة. وربما لم يفعلها حباً في نبت ولا اكتمالاً في شجاعته، بل لأنَّ موت مروان كسر آخر عذرٍ كان يحجي به صورته عن نفسه. لقد رأى رجلاً يدخل حياً ويخرج جثَّةً، وفهم أنَّ الراتب الذي يرسله إلى أسرته صار يحمل معه جزءاً من دم رجلٍ له أسرةٌ أيضاً.

في الأيام التالية تغيرَ سالم. صار أقلَّ قدرةً على النظر في وجوه الضباط، وأكثرَ فزعاً من وقع خطواتهم. وكان يشعر أنَّ المفتاح المعلق إلى خصره لا يفتح الزنازين وحدها، بل يغلق عليه باباً داخلياً كلها استخدمه. ولم يكن يستطيع ترك العمل بسهولة؛ فالانسحاب من مؤسسة سرية ليس كترك متجر، وقد يصبح الحارس نفسه سجيناً إذا عرفوا أنه رأى أكثر مما ينبغي. أما نبتٌ فقد بدأ يفكر في معنى النجاة. كان يتمنى الخروج، لكنه لم يعد قادراً على تخيل حريته منفصلةً عن مروان والذين بقوا خلف الأبواب. وقد خشي أن يخرج فينشغل بحياته، ثم تتحوَّل أيام السجن إلى ذكرى يرويها ليبرهن على شجاعته. فالآلام التي نجو منها قد تصنع فينا رحمةً ومسؤولية، وقد تتحوَّل إلى أوسمةٍ نعلّقها على ذواتنا، ونسى الذين لم ينجوا.

بعد أسابيع، انتشرت خارج السجن أخبار اعتقال كاتب المقال. كانت الصحيفة قد تبرأت منه أولاً، ثم اضطرت تحت ضغط القراء إلى المطالبة بمعرفة مكانه. كتب صالح الوراق رسائل إلى محامين ووجهاء، ونشر أصدقاء المكتبة نسخ المقالين مع اسم صاحبه الحقيقي. ولم تكن الضجة كافيةً لهدم السجن، لكنها جعلت الاحتفاظ به أكثر كلفةً؛ فالسلطة تحب ضحاياها مجهولين، لأنَّ الاسم يفتح في الجدار نافذة، والوجه يمنع العدد من ابتلاع الإنسان.

استدعي نبتُ اليقين إلى التحقيق للمرة الأخيرة. أخبروه أنه سيخرج إذا وقَّع تعهداً بعدم الكتابة تحت اسمٍ مستعار، ولم يتضمَّن التعهد هذه المرة شهادةً كاذبةً ولا مديحاً للسلطة. قرأ الورقة ببطء. كان يستطيع رفضها ومواصلة السجن ليلبدو أكثر ثباتاً، لكنه أدرك أنَّ الثبات ليس إدمان التضحية، وأنَّ الإنسان قد يقع في فتن البطولة كما يقع في فتن الخوف. لم يكن في الشرط ما يجبره على ترك الحق، بل يحرمه من قناع الاسم المستعار؛ وربما صار عليه أن يكتب بوجهه، ويتحمَّل تبعة كلمته كاملة.

وقَّع باسمه: نبتُ اليقين.

قبل خروجه أعادوا إليه حقيبتيه والمصحف، لكنهم احتفظوا بدفتره. وضع القصاصة التي أعطاها له سالم داخل غلاف المصحف، وحفظ تفاصيل موت مروان في ذاكرته. وعند الباب الخارجي التفت فرأى سالم واقفاً في نهاية الممر. لم يتبادلا كلمةً ولا إشارة؛ كان أيُّ امتنانٍ ظاهر قد يقتله. لكنَّ نبتاً حمل صورته معه بوصفه دليلاً على أنَّ الإنسان لا يُختصر في الموقع الذي وُضع فيه؛ فقد يقف رجلٌ خارج القضبان ويبدأ في استعادة حريته، بينما يقف آخر داخلها وقد بلغ من الحرية ما يعجز عنه سجَّانه.

خرج إلى ضوء النهار فألمت الشمس عينيه. كانت المدينة كما تركها: العربات تتدافع، والباعة ينادون، والناس يعبرون مسرعين. بدت الحرية عاديةً إلى حدٍّ موجه؛ هواءٌ بلا إذن، وسماءٌ لا تقطعها القضبان، وطريقٌ يستطيع أن يختار فيه جهة قدميه. غير أنَّه لم يشعر بأنَّه عاد إلى حياته، فقد ترك في الزنزانة رجلاً مات على ساقه، وترك وراء الأبواب أصواتاً لا يعرف أصحابها.

وجد صالح الوراق ينتظره على الرصيف المقابل. بدا الشيخ أكثر نحولاً، وانحنى ظهره قليلاً، لكنَّ عينيه احتفظتا بالنور ذاته. اقترب نبتٌ منه، وحين وضع صالح يده على كتفه انهار الصبر الذي تماسك به أمام المحققين. بكى أباه ومروان وأمه ونفسه القديمة، وبكى لأنَّ الإنسان يحتاج أحياناً إلى يدٍ آمنة كي يسمح لقوَّته أن تنعَب.

عادا إلى الزقاق، فوجد المكتبة مغلقةً بالشمع الأحمر. كانت الالفة الباهتة ما تزال في موضعها، لكنَّ الباب الذي فتح له ذات فجر صار محظوراً عليه. وقف نبت أمامه طويلاً، ثم أدرك أنَّ السلطة أغلقت المكان لأنها ظنَّت أنَّ المعرفة تقيم داخل الجدران، ولم تفهم أنَّ المكتبة قد انتقلت إلى الذين عبروا منها، وأنَّ الكُتاب إذا فتح في الإنسان عيناً لا تستطيع الأقفال إغلاقها.

وفي تلك الليلة نام نبتُ اليقين في غرفةٍ ضيقةٍ استعارها له أحدُ أصدقاء صالح. وضع المصحف إلى جواره، لكنه لم يستطع النوم. كان يعرف أنَّ أمامه ثلاثة طرق: أن يختفي ويبدأ حياةً هادئةً، أو يغادر البلاد ويحمل جراحه إلى منفى بعيد، أو يكتب ما رآه ويعرف أنَّ الباب الرمادي قد يُفتح له مرةً أخرى.

فتح المصحف، فوجد رسالة أمِّه وقصاصة سالم تجتمعان في موضعٍ واحد؛ وصيةٌ تحذِّره من الثأر، وشهادةٌ تدعوه إلى ألا يصمت. عندئذٍ أدرك أنَّ طريقه المستقيم يمرُّ بين نارين: ألا يكتب مدفوعاً بكرهية قاتلي أبيه، وألا يسكت مدفوعاً بحبِّ نجاته.

مدَّ يده إلى ورقةٍ بيضاء، وكتب في أعلاها:

«مروان السالمي: المعلم الذي خرج من سجن السجْن ولم يخرج من الشهادة».

ثم بدأ يروي.

الاسم الذي عاد من الموت

لم يكتب نبت اليقين عن مروان السالمي في ليلة واحدة؛ فقد كان يشعر أن لكل كلمة يضعها على الورق حرمة تشبه حرمة الاقتراب من جسد ميت، وأن الخطأ في نقل واقعة واحدة قد يمنح القتلة منفذاً لهدم الشهادة كلها. أعاد ترتيب الساعات في ذاكرته، واسترجع هيئة مروان حين أُعيد إلى الزنانة، وأثر الجرح فوق جبينه، وثقل رأسه على ساقه، وتوقف أنفاسه مع أول الضوء. ثم أخرج القصاصة التي أعطاها سالم، ونسخ منها رقم الملف وتاريخ الاعتقال واسم الضابط، وأعادها إلى غلاف المصحف كأنه يردُّ شاهداً إلى مخبئه.

كان أصعب ما واجهه أنه لم يعرف الحد الذي تنتهي عنده الشهادة وتبدأ عنده الكتابة. فالذاكرة لا تحتفظ بالحوادث كما وقعت تماماً؛ إنها تمزج الواقعة بما شعر به صاحبها، وتملأ بعض الفراغات بما ينسجم مع جرحه. ولذلك قاوم ميله إلى تجويل مروان أو تحويله إلى بطلٍ بلا ضعف. كتب أنه خاف، وأنه تردد، وأنه اشتاق إلى أبنائه حتى كاد يوقع ما أرادوا، وأنه لم يكن يبحث عن الموت. أراد للقارئ أن يعرف أن شجاعته لم تكن غياب الخوف، بل عدم تسليم الخوف حقَّ تحديد الحقيقة.

وعندما بلغ خبر موته، لم يملأ الصفحة بالشتائم، بل ترك التفاصيل تؤدي مهمتها: رجلٌ دخل التحقيق على قدميه، وعاد مجوَّلاً، ثم مات من غير طيب، وحُمل جسده قبل أن يعرف أهله مكانه، بينما كُتب في السجل أن الوفاة حدثت بسبب عارضٍ صحي. كان نبت يعلم

أنَّ الحقيقةَ الدقيقةَ أشدُّ على الظالم من الغضب المنفلت؛ فالشئمة نتيح له أن يتظاهر بأنَّه ضحية خصومة، أمَّا الواقعة الموثَّقة فتسلبه الخبأ الذي يحتجُّ فيه.

قرأ صالح الوراق المسودة في الغرفة التي استعارها لهما أحد أصدقاء المكتبة. ظلَّ الشيخ صامتاً بعد أن انتهى، ثم أعاد الأوراق إلى نبت. كان في وجهه خوفٌ واضح، لكنه لم يكن خوفاً من ضعف النص، بل من قوَّته. لقد صارت الشهادة قادرةً على أن تعيد اسم مروان إلى الناس، وقادرةً أيضاً على إعادة نبت إلى الزنزانة.

أمضيا أياماً في مراجعة كلِّ عبارة. حذفوا ما لا يستطيعان إثباته، وفصلا بين ما رآه نبت بعينه وما سمعه من مروان، واستبدلوا الاتهامات العامة بأسئلةٍ محدَّدة لا تستطيع الجهة المسؤولة أن تجيب عنها من غير أن تكشف تناقضها. ولم يكن ذلك احتياطاً قانونياً فحسب، بل عبادةً للعدل؛ فالخصومة لا تُسقط عن الكاتب أمانة الدقة، ومن ظلم ظالماً بكذبةٍ لم ينصر الحقيقة، بل أعلن أنَّه يشبه خصمه حين نتاح له اللغة التي يستطيع بها إيذاءه.

بقيت مشكلة النشر. الصحيفة التي نشرت مقالاته السابقة رفضت الشهادة؛ فقد خافت أن تغلق نهائياً، واعتذر رئيس تحريرها بعبارةٍ كثيرة عن التوقيت والظروف وحماية العاملين. لم يغضب نبت منه في البداية؛ كان يعرف أنَّ وراء كلِّ صحيفة أسراً تعيش من رواتبها، وأنَّ الشجاعة التي يطلبها الإنسان من الآخرين تكون سهلةً ما دام لا يدفع ثمنها من بيوتهم. لكنه أدرك كذلك أنَّ الخوف إذا صار سياسةً دائمة لم يعد حفاظاً على المؤسسة، بل صار تبرعاً لها من الغاية التي أنشئت من أجلها.

تنقَّلت الأوراق بين أيِّدٍ متردِّدة. قرأها صحفيون ومحامون وأساتذة، وأثنوا على أهميتها، ثم أعادوها بحذر. كان الجميع يريدون أن تظهر الحقيقة، لكنَّ كلَّ واحدٍ تمنى أن يتقدَّم بها

شخص آخر. وهكذا اكتشف نبت أن كثيراً من القضايا العادلة لا تموت لغياب المؤمنين بها، بل لأن المؤمنين جميعاً ينتظرون شخصاً مجهولاً يحمل عنهم كلفة الإيمان.

وأخيراً قرر أن ينشرها في نشرة صغيرة تُطبع سراً وتوزع بأيدي طلاب وعمّال. لم تكن لها مؤسسةٌ تحميها ولا عنوانٌ ثابت، لكنها كانت تنتقل من يدٍ إلى أخرى كما تنتقل النار الهادئة في أطراف الحطب. نُشرت الشهادة باسم نبت اليقين كاملاً؛ فقد وقّع تعهداً ألاّ يختبئ خلف اسمٍ مستعار، ورأى أن إظهار اسمه هذه المرة ليس استعراضاً للشجاعة، بل وضع لجسده خلف كلمته حتى لا يدفع مجهولٌ ثمنها عنه.

خرجت النسخ الأولى في مساءٍ ممطر. حمل نبت رزمةً منها تحت ثيابه، وسار في الشوارع التي وصل إليها قبل أعوامٍ غريباً يحمل حقيبةً ومصحفاً. كان قلبه يخفق كلما مرّ قرب نقطة تفتيش، لكنه لم يشعر بالخوف وحده؛ كان يشعر بأنه يحمل اسم رجلٍ حاول السجن دفعه بلا قبر، وأنّ كلّ نسخةٍ تصل إلى قارئٍ تردّ جزءاً من مروان إلى الحياة العامة.

بعد يومين ظهرت صورة الشهادة في هواتف الناس، ثم تجاوزت المدينة إلى مدنٍ أخرى. تعرّف أحد أقارب مروان إلى اسمه، ووصل الخبر أخيراً إلى زوجته وأبنائه، الذين ظلوا أشهراً يتلقون إجاباتٍ متناقضة عن مصيره. لم تمنحهم الشهادة الجثمان، ولم تردّ الأب إلى بيته، لكنها أنهت العذاب المعلق بين الأمل والفقد، ومنحت حزنهم عنواناً ومسؤولاً وساعةً تقريبيةً للموت.

أدرك نبت يومها أنّ الحقيقة قد تكون موجعةً، لكنّ الجهل المصنوع أشدّ منها قسوة؛ فالحزن يحتاج إلى يقينٍ يقف عليه، ولو كان اليقين قبراً. أمّا الانتظار بلا خبر فيترك القلب واقفاً عند الباب سنوات، لا يملك أن يستقبل عائداً ولا أن يودّع غائباً.

أصدرت الجهة المسؤولة بياناً نفت فيه كلَّ ما ورد، ووصفت الشهادة بأنها حملةٌ لتشويه مؤسسات الدولة. لم تذكر مروان باسمه، ولم تشرح سبب اختفاء جسده، ولم تسمح بتحقيقٍ مستقل، بل هاجمت نبأً واتهمته بالانتماء إلى جماعةٍ معادية. وحين قرأ البيان شعر أنهم لم يناقشوا الحقيقة، بل حاولوا تغيير صاحبها؛ فإذا عجزت السلطة عن تكذيب الواقعة صنعت للراوي هويةً تجعل الناس يخافون من تصديقه.

بدأت التهديدات تصل إليه. رسائل بلا أسماء، ووجوه تراقب مدخل البيت، وسيارة تقف طويلاً عند طرف الزقاق. طلب منه أصدقاء صالح أن يغادر المدينة، وأخبروه أن بقاءه لن يخدم أحداً إذا أُعيد إلى السجن أو قُتل في شارعٍ مظلم. كانت حججهم معقولة، ولم يرَ نبت في الانسحاب خيانةً تلقائيةً؛ فالحفاظ على النفس ليس جبنًا، والإنسان لا يُؤمر بأن يضعها في فم الخطر لجُرد أن يبرهن على صدقه.

غير أن العودة إلى القرية كانت مستحيلة، والبقاء في المدينة صار انتظاراً للقبض عليه. اتُخذ القرار بأن ينتقل إلى بلدةٍ ساحلية بعيدة، حيث يمكنه العمل في صحيفةٍ مستقلة صغيرة، ومواصلة الكتابة من غير أن يكون مكشوفاً بالكامل. وقبل الرحيل أراد زيارة أطلال المكتبة.

كان الشمع الأحمر قد تَمَزَّق، لكن الباب بقي مغلقاً بأمر السلطة. وقف نبت أمام دار البصرة، ومدَّ يده إلى اللقطة الخشبية التي تحت الأمطار بعض حروفها. تذكَّر الفجر الذي جاء فيه خلف صالح، جائعاً بلا مأوى، وكيف فتحت له الكتب مدينةً داخل المدينة. شعر أنه يغادر بيتاً ثانياً، وأنَّ السلطة نجحت في إغلاق بابهِ، لكنها فشلت في إعادة الفتى الذي دخله إلى جهله القديم.

أما صالح فقد رفض الرحيل معه. كان عمره قد صار أثقل من أن يحمله إلى مدينةٍ جديدة، وكان يرى أنَّ الكتب المغلقة خلف الباب أمانةٌ لا يستطيع تركها. استأجر زاويةً صغيرةً في دكان خياط، ووضعه فيها عشرات الكتب التي أنقذها قبل الإغلاق، ثم جلس يبيعها كأنَّ مكتبته لم تُغلق، بل تقلَّصت إلى ما يستطيع جسده حراسته. تعلَّم نبت منه أنَّ المقاومة ليست دائماً صداماً كبيراً؛ قد تكون شيئاً يفتح كتاباً في مكانٍ يريدون فيه إغلاق العقول، أو معلماً يرفض حذف واقعة، أو أما تحفظ في ابنها معنى لا تستطيع الحرب الوصول إليه.

في ليلة الرحيل جلس نبت وصالح طويلاً من غير حديثٍ كثير. كان الصمت بينهما ممتلئاً بما لا تحتاج الصحبة الصادقة إلى شرحه. أعطاه الشيخ قلباً قديماً ذا جسمٍ أسود، كان قد كتب به فهارس مكتبته الأولى، ووضعه في يده كما وضع أبوه المال فيها عند مفترق الوادي. عندئذٍ شعر نبت أنَّ حياته تُبنى من أماناتٍ يسلمها إليه الرجال قبل أن يفارقوه: الأب منه ميزان الكرامة، ومروان منه ثقل الشهادة، وصالح منه القلم الذي يحفظها.

غادر المدينة قبل الفجر في حافلةٍ قديمة. وضع الحقيبة إلى جواره، وفيها ثيابٌ قليلة والمصحف الأخضر والرسالة والقصاصه والقلم. كانت أملاكه كلها تتسع لمقعد، لكنَّه لم يشعر بأنَّه فقير؛ فقد عرف أنَّ الإنسان قد يملك بيوتاً كثيرةً ولا يجد في داخله موضعاً يقيم فيه، وقد يمضي بحقيبةٍ واحدة ويحمل من المعاني ما يمنعه من التشرُّد.

على الطريق الطويل نحو الساحل، كانت القرى تمرُّ خلف النافذة كصورٍ من طفولته: بيوتٌ طينية، ونساء يحملن الماء، وصبيان يركضون خلف السيارات، ورجال يجلسون أمام متاجر صغيرة يتابعون أخبار حربٍ تُدار فوق رؤوسهم. رأى البلاد لا كما تصفها الخرائط، بل كما تعيش في وجوه أهلها؛ وطناً منهكاً تُهب خيراته ثم يُطلب من فقرائه أن يثبتوا حبَّهم له بالمزيد من الدم.

وفي منتصف الطريق توقفت الحافلة عند نقطة تفتيش. صعد مسلّحون يراجعون الأسماء والوجوه. مدّ نبت بطاقته إلى أحدهم، فقرأ الرجل الاسم مرتين، ثم رفع عينيه إليه. تجمّد قلبه، فقد بدأ اسم نبت اليقين يظهر في البيانات والرسائل، ولم يعد مجهولاً كما كان عند وصوله الأول إلى المدينة.

قلّب المسلّح البطاقة بين أصابعه، ثم أعادها من غير تعليق. تحركت الحافلة، ولم يعرف نبت إن كان الرجل لم يتعرّف إليه، أم تعرّف واختار أن يصمت، أم سجّل وجهه لجهةٍ ستنتظره لاحقاً. عندها أدرك أنّ الشهرة التي تصنعها المواقف ليست نوراً كلّه؛ إنّها تجعل الكلمة أوسع أثراً، وتجعل صاحبها في الوقت نفسه أكثر ظهوراً للذين يخافون منها.

فتح المصحف أثناء سير الحافلة، وقرأ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. وتأمّل كيف جاء التوكّل بعد العزم، لا بدلاً منه؛ فالإنسان مأموراً أن ينظر ويستشير ويقدر العواقب، ثم إذا بلغ حدود قدرته سلّم ما وراءها لله. لم يكن التوكّل أن يمضي مغمض العينين، بل أن يفتح عينيه كاملتين، يرى الخطر ولا يعبده، يأخذ بالأسباب ولا يتخذ منها ربّاً صغيراً يظنّ أنّها تستقلّ بصنع المصير.

عند الغروب ظهرت المدينة الساحلية. كان البحر يمتدّ وراءها واسعاً، أزرق قائماً، بلا جبالٍ تحاصره ولا طرقٍ تحدّه. ولم يكن نبت قد رأى البحر من قبل. حين نزل من الحافلة، ترك الناس يمشون إلى وجهاتهم، وسار وحده حتى بلغ الشاطئ. وقف طويلاً أمام الماء، مأخوذاً بتتابع الأمواج وهي تنكسر ثم تعود؛ كأنّ البحر يعلم الأرض أنّ الانكسار ليس دائماً نهاية الحركة.

شعر للمرة الأولى أنّ العالم أوسع من حربه، وأنّ الله الذي خلق هذا الامتداد لم تضيق خزائن رحمته بالمنافذ التي أغلقت في وجه عبدٍ واحد. ومع ذلك لم يمنحه البحر راحةً

كاملة؛ فقد كان داخله سؤالٌ لم يستطع الهرب منه: أين أمُّه الآن؟ وهل ظلَّ البيت قائماً؟
وهل كُتب له أن يراها مرةً أخرى؟

جلس على الرمل، وأخرج رسالة سكينه. قرأ كلماتها حتى حفظ انحناءات الحروف التي لم تكتبها يدها. ثم رفع عينيه إلى الأفق، وقرَّر أنَّ انتقاله إلى الساحل لن يكون هرباً دائماً؛ سيجمع ما يستطيع من المال والمعلومات، ويبحث عن طريقٍ يعود بها إلى القرية، ولو اضطر إلى عبور البلاد كلّها.

لكنه لم يكن يعلم أنَّ أمَّه غادرت البيت قبل أسابيع، وأنَّ القرية تعرَّضت لهجومٍ جديد، وأنَّ اسمها صار بين أسماء النازحين الذين تفرَّقوا في المخيمات. ولم يكن يعلم أنَّ المرأة التي زرعت في قلبه أول اليقين كانت تسير في الجهة المقابلة، تحمل معها مفتاح البيت المهدَّم وقيصاً قديماً لأبيه، وتسأل في كلِّ مدينةٍ عن ابنٍ صار اسمه معروفاً للغرباء، مجهول المكان لأُمَّه.

المفتاح الذي لم يعد له باب

وصل الخبر إلى نبت اليقين في هيئة جملة قصيرة، لكنّها هدمت المسافة بين الخوف والحقيقة دفعةً واحدة. لم تعد أمّه أثرًا يتنقل بين السجلات، بل امرأة واقعةً في يد رجال يعرفون اسمه، وقد يجعلون من قرابتها به تهمةً لا تحتاج إلى دليل. شعر أنّ كلّ مقال كتبه، وكلّ موقف ظنّه يخصّ ضميره وحده، امتدّ الآن إلى جسد أمّه المتعب؛ وأنّ الكلمة حين تخرج إلى العالم لا يختار صاحبها دائمًا من يدفع ثمنها.

للحظةٍ داهمه ندمٌ حاد. ماذا لو كان صمته قد أبقاها في بيتها؟ ماذا لو لم يعرف الغباء اسمه، ولم تضطر إلى حمل قصاصات مقالاته بين الخيمات؟ بدا له أنّ الكاتب يستطيع أن يجمل توضيحته بالحديث عن الحق، بينما يدفع أحبّاءه أقساطها في الخفاء. وتذكّر أبناء مروان، وأمّ سالم، والعاملين في الصحيفة، وفهم أنّ الموقف الأخلاقي لا يقع داخل فردٍ معزول؛ إنّه يهتزّ في دوائر تمتدّ إلى من لم يشاركوا في اتخاذه.

غير أنّه أدرك أنّ تحميل نفسه أسباب الحرب كلّها صورةٌ مقلوبة من الغرور. لم يقتد المسلّحون أمّه لأنّه كتب، بل لأنّهم اختاروا أن يجعلوا القراية جريمة، وأن يستخدموا الضعفاء لمعاقبة من يعجزون عن إخضاعه. كان مسؤولاً عن تقدير أثر كلمته، لكنه ليس مسؤولاً عن الشرّ الذي يختاره غيره بكامل إرادته. ولو حمل الضحية ذنب كلّ ما يفعله الجلاّد ردّاً على مقاومتها، لصار الظلم بريئاً وصارت مقاومته هي الجريمة.

بدأ البحث عن القافلة. لم يكن ثمة سجلٌ رسميٌّ لمن أوقفهم المسلّحون؛ فالجماعات التي تعيش خارج القانون تعرف أنّ أول شروط الإفلات من الحساب ألا تترك للضحايا أثراً مكتوباً. لكنّ سائق شاحنة رأى النازحين عند الممر الجبلي، ووصف المركبتين اللتين نقلتاها إلى مبنى قديم كان في السابق مركزاً لتخزين المحاصيل. يقع المبنى في وادٍ جانبي تحيط به المرتفعات، ولا يصل إليه طريقٌ آمن.

عرضت سلمى أن تتواصل مع وسطاء محليين، بينما أراد بعض المتطوعين نشر الخبر فوراً. وقف نبت بين طريقين عرفهما من تجربته مع إياد: قد يحمي الإعلان المعتقلين بأن يجعل أسماءهم معروفة، وقد يدفع الخاطفين إلى نقلهم أو إيذائهم إذا شعروا بأن الأمر صار فضيحة. لم تكن الحقيقة هنا كلمةً ينبغي إطلاقها فحسب، بل حياةٌ ينبغي تقدير ما تفعله الكلمة بها.

اختار أن يبدأ بالوساطة، وأن يُعدّ الخبر للنشر إذا فشلت. دَوّن أسماء من أمكن معرفتهم من أفراد القافلة، ثم أرسل نسخاً منها إلى أكثر من جهة كيلا تختفي القائمة إذا اختفى هو. وتعلّم أنّ الحذر ليس نقيض الشجاعة؛ فالشجاعة التي لا تحسن ترتيب خطواتها قد تخدم الظالم بمنحه ضحيةً إضافية، أمّا الحذر الذي يحمي الفعل ولا يلغيه فهو عقلُ الشجاعة وبصرها.

وجدوا شيخاً قليلاً يعرف قائد المجموعة المسيطرة على الممر. كان الرجل من أولئك الذين صنعتهم الحرب وسطاء بين سلطات لا تعترف بالقانون؛ يحملون احتراماً اجتماعياً قديماً، ثم يجدون أنفسهم يستخدمونه لإطفاء حرائق أشعلها شبّان لا يعترفون إلا بالسلاح. استمع إلى نبت، وأبدى استعداداً للتدخل، لكنه حذّره من الاقتراب؛ فقد عرف المسلّحون أنّ المرأة أمّ الكاتب الذي نشر شهادة مروان، وصاروا يريدونه شخصياً.

هنا انكشف الأمر: لم يكن توقيف القافلة اشتباهاً عابراً، بل كميناً صنّعه شهرة اسمه. كانت سكيّنة وسيلةً لاستدعائه، والرجال ينتظرون أن تقوده أمومته إلى الموضع الذي لم تستطع أوامر الاعتقال أن تقوده إليه.

شعر نبت بشيءٍ من السكيّنة القاسية؛ فعندما يتحدد الخطر يتراجع عذاب الاحتمالات، ويبدأ العقل في رؤية ما يستطيع فعله. اقترح الشيخ تبادلاً غير معلن: تُفرج الجماعة عن النساء و كبار السن، ويوافق نبت على الحضور لتسوية ما سمّوه «إساءاته». لم يكن أحدٌ يجهل أنّ التسوية اسمٌ مهذّب لاعتقاله، لكنّ اللغة في زمن الخوف كثيراً ما تُجبر على حمل معانٍ تناقض ظاهرها.

رفضت سلبى أن يذهب. كانت تعرف من تجربة أخيها أنّ الداخل إلى المباني السرية لا يملك موعد خروجه، وأنّ الذين يطلبون «حديثاً قصيراً» قد يحمون أعواماً من حياة إنسان. أما نبت فكان يرى أمّه داخل غرفةٍ لا يعرف حالها، ولم يستطع أن يجعل سلامته أرحم من جسدها. ومع ذلك لم يرد أن يسلم نفسه في حركةٍ عاطفية تمنح الخاطفين ما يريدون من غير ضمان.

طلب دليلاً على أنّها حيّة، وضماناً لخروج بقية النازحين قبل وصوله، وحضور الشيخ وعدٍ من الوجوه الاجتماعية. كما أرسل إلى الصحيفة رسالةً مؤجلة النشر، تضمّ أسماء الخاطفين ومكان الاحتجاز، على أن تُنشر إذا انقطع اتصاله أكثر من ساعات محددة. لم يكن يهدّدهم بقوةٍ يملكها، بل بالنور، فالجرائم السرية تتغذى على العتمة، وأحياناً تكفي نافذةٌ صغيرة لإرباك الذين اعتادوا العمل بلا شهود.

جاءه الدليل عند الغروب: ورقةٌ كتبت عليها سكيّنة بيدٍ مرتعشة آيةً واحدة: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. لم تكتب اسمها، لكنّ نبتاً عرف انحناء الحروف التي تعلّبتها متأخرة، وعرف

أنَّ أمّه لم تختَر الآيةَ اعتباطاً. كانت تستعيد موسى عليه السلام والبحر أمامه والعدو خلفه، وتخبر ابنها أنَّها لم تمنح خاطفها قلبها، وإن ملكوا الطريق الذي يقف عليه جسدها.

قَبْل الورقة، وشعر أنَّ المرأةَ المحبوسة هي التي ترسل إليه الطمأنينة. لقد ظلَّ أعواماً يظُنُّ أنَّه يبحث عنها لينقذها، فإذا بها تذكِّره بالجذر الذي استمدَّ منه قدرته على البحث. كانت أمّه أضعف منهم جسداً، لكنها أكثر حرية؛ لأنَّهم احتاجوا إلى سلاح وحراسٍ كي يثبتوا قوتهم، بينما احتاجت هي إلى آيةٍ واحدة كي تستعيد اتساع العالم داخل غرفةٍ مغلقة.

تحرك نبت مع الشيخ ورجلين نحو الوادي. بقيت سلمى في الخيم تدير الاتصالات وتحفظ مسارهم، وقد فهمت أنَّ مرافقتها لن تزيد الموقف إلا رهينةً أخرى. كانت السيارة تسير في طريقٍ ضيقٍ تتدلَّى فوقه الصخور، والظلام يملأ الفراغات بين الجبال. وكلما اقترب نبت من المبنى، شعر بأنَّه يعود إلى القرية، إلى الليلة التي خرج فيها هارباً من التجنيد، وكأنَّ الطريق ظلَّ يدور به طوال هذه السنوات ليضعه مرةً أخرى أمام السلاح نفسه، لكن بقلبٍ لم يعد القلب ذاته.

ظهر المخزن القديم محاطاً بمركباتٍ مسلَّحة. توقفت السيارة عند حاجز ترابي، ونزل الرجال. صادر الحراس هواتفهم، ثم اقتادوا نبتاً إلى ساحةٍ داخلية مضاءة بمصباح وحيد. رأى عند الجدار عدداً من النازحين؛ نساءً وأطفالاً ورجلين مسنَّين. بحث بعينه عن أمّه فلم يجدها.

أدخل إلى غرفةٍ كان يجلس فيها قائد المجموعة. لم يكن كبير السن، لكنَّ الحرب منحتَه هيئة رجلٍ اعتاد أن يرى الخوف في وجوه الآخرين. وعلى الطاولة أمامه وُضعت نسخٌ من مقالات نبت، بينها شهادة مروان، وقد حدِّدت بعض عباراتها بالخبر الأحمر بالطريقة نفسها التي رآها في المبنى الرمادي. شعر نبت أنَّ أدوات القمع تتشابه وإن اختلفت الرايات؛ لكلِّ

جهةً كلماتها، لكنّها جميعاً تضع الخطّ الأحمر تحت السؤال ذاته: مَنْ منحك الحقَّ في أن ترى ما نريد إخفاءه؟

طلب القائد منه أن يتراجع عن شهادته، وأن يكتب أنَّ مروان مات بمرضٍ سابق، وأنَّ ما نشره استند إلى انفعال سجين لا إلى دليل. وفي المقابل تُطلق أمُّه والنازحون، ويُسمح له بالمغادرة. كان العرض أكثر قسوةً من التعهّد القديم؛ فهناك طُلب منه أن يصمت عن مجهولين، وهنا طُلب أن يقتل مروان مرةً أخرى بقلبه، وأن يحو شهادة سالم، وأن يجعل من اسم المعلِّم جسراً تعبر عليه أمُّه إلى الحرية.

للمرة الأولى شعر أنَّ الحقيقة وأمّه تقفان في جهتين متقابلتين. لم يعد الثمن سجنه أو جسده، بل المرأة التي حفظت حياته. وأدرك لماذا يهاجم الطغاة روابط الإنسان؛ لأنَّ الضمير الفردي قد يصمد أمام الألم، لكنه يضطرب حين يرى أحبَّته يدفعون الثمن. كانوا يريدون أن يجعلوا حبه لأُمِّه خصماً لحبه للحق.

طلب أن يراها قبل أن يجب.

طال الانتظار، ثم فُتح الباب الجانبي، ودخلت سكينة بين امرأتين. كانت أصغر في ذاكرته بكثير؛ الآن انحنى ظهرها، وشاب شعرها، وغارت عيناها في وجهٍ أكل منه النزوح والجوع. كان المفتاح معلقاً في عنقها، وتضمُّ إلى صدرها قميص أبيه. توقّفت عند الباب، ونظرت إليه كما تنظر الأم إلى وجه بنته في قلبها سنوات ثم وجدته قد تغير.

لم يركض أحدهما إلى الآخر. كانت الدهشة أكبر من الحركة، والفراق الطويل قد صنع بينهما مسافةً لا تعبرها القدم في لحظة. رأى نبت في وجهها كلّ الأعوام التي غابها، ورأت هي في ملامحه الصبيّ الذي خرج قبل الفجر والرجل الذي أعادته إليها الحروب. ثم اقترب وانحنى على يديها، فانفجر البكاء الذي أخرته السجون والطرق والمقالات. وضعت كفَّها

على رأسه كما فعلت ليلة رحيله، وشعر أنَّ العالم، على اتساعه واضطرابه، عاد لحظةً إلى موضعه الصحيح.

لم تسأله سكينه عمَّا طلبوا منه؛ فقد رأت الأوراق على الطاولة وفهمت. ولم تحتج إلى خطابٍ طويل كي يعرف موقفها. كانت هي التي علَّته أنَّ الإيمان لا يُختبر بما نقوله في السعة، بل بما نرفض بيعه عند الضيق. ولو قبلت نجاتها بثمن شهادة زور، لعادت إلى الحياة وهي تحمل في قلبها ميتاً جديداً اسمه ابنها.

نظرت إلى القائد بثبات امرأةٍ لم يعد يملك ما يخيفها به؛ فقد مات زوجها، وضاع بيتها، وتفرَّق أبناؤها، وسارت بين المخيمات، ولم يبقَ لها إلا الله وضميرها. وبهذا كانت أفقر الحاضرين وأغناهم معاً. أشارت إلى نبت ألا يكتب.

في تلك الإشارة الصغيرة حُسمت المعركة داخله. لم تعد الحقيقة في جهةٍ وأمه في جهةٍ، بل وقفت أمه إلى جوار الحقيقة، رافضةً أن يُستخدم حبُّه لها جبلاً يخنق به اسم مروان. عندئذٍ أدرك أنَّ جذر انتمائه لم يكن القرية وحدها، ولا الأرض التي هُدم بيتها، بل هذا المعنى الذي انتقل من قلب أمٍّ أميةٍ إلى ابنٍ يكتب: أنَّ الإنسان لا يملك كلَّ مصيره، لكنه يملك ألا يوقع بيده على سقوطه.

رفض.

تغيَّر وجه القائد، وأُخرجت سكينه من الغرفة. سمع نبت صوت مربّاتٍ تتحرك في الساحة، ولم يعرف هل ينقلون النازحين أم يعدُّون لنقله. بعد دقائق دخل أحد الحراس وأسرَّ للقائد خبراً. كان نشر الرسالة المؤجَّلة قد بدأ؛ إذ تأخر اتصال نبت عن الموعد، فوصلت التفاصيل إلى الصحيفة ومنظماتٍ ووجوه قبلية، وانتشر مكان الاحتجاز وأسماء بعض المسؤولين. كما

وصل رجالٌ من قبائل النازحين إلى الطريق، وصار استمرار احتجاز النساء عبثاً قد يفتح نزاعاً لا تريده الجماعة.

فشلت العتمة.

بعد ساعاتٍ من التوتر، أطلق سراح النازحين، وأُبقي نبت وحده. لكنَّ الشيخ رفض مغادرة المكان من دونه، وأعلن أنَّ الاتفاق كان خروج الجميع. لم يكن موقفه نابغاً من حبٍّ خاص لنبت، بل من إدراكه أنَّ الوساطة إذا سمحت للخاطف بتغيير شروطه صارت غطاءً للخطف لا علاجاً له. وتحت ضغط الخارج، قرَّر القائد أن يطلقه بعد أن أخذ منه تعهداً بالحضور إذا استدعي رسمياً، وهو يعلم أنَّ «الرسمية» في بلادٍ ممزقة كلمةٌ بلا مؤسسة.

خرج نبت إلى الساحة، فوجد أمه واقفةً قرب السيارة. كانت لا تزال تحمل المفتاح والقميص، كأنَّها خرجت من البيت منذ لحظات لا منذ شهور. اقترب منها، ولم يجد ما يقوله. كانت الكلمات التي أنقذ بها أسماء كثيرين عاجزةً أمام وجهها. فاكتمت بأن حمل عنها كيسها الصغير، ثم أجلسها إلى جواره.

تحركت السيارة بعيداً عن المخزن. وعندما تجاوزوا الحاجز الأخير، أخرجت سكينة المفتاح من عنقها ووضعت في كفِّ ابنها. كان مفتاحاً ثقيلاً صدأً لبابٍ لم يعد قائماً؛ فقد وصلها خبرٌ مؤكد أنَّ البيت انهار بعد رحيلها. تأمَّله نبت طويلاً، وشعر أنَّ الحديد الصغير يحمل طفولته كلَّها: يد أبيه على الباب، وصوت أمه في الفجر، ورائحة الخبز، وضوء المصباح، والمصحف على الرف.

أدرك أنَّ بعض المفاتيح تبقى بعد زوال الأبواب، لا لتفتح مكاناً، بل لتشهد أنَّ للإنسان بيتاً كان هنا، وأنَّ الخراب لم يبدأ التاريخ من نفسه. وضع المفتاح في حقيبته إلى جوار

رسالة أمّه وقصاصة سالم وقلم صالح؛ أشياء قليلة صارت خريطةً لحياته، كلُّ واحدٍ منها بابٌ إلى معنى لا يستطيع الركام إغلاقه.

أسندت سكينه رأسها إلى نافذة السيارة وأغمضت عينها. ظلَّ نبت يراقب تنفُّسها كأنَّه يخشى أن يفقدها بعد أن وجدها. وكان يريد أن يسألها عن قبر أبيه والبيت والسنوات، لكنه عرف أنَّ الحكايات الثقيلة لا تُستخرج دفعةً واحدة، وأنَّ الصمت قرب من نحب قد يكون أصدق من استعجال الكلام.

قبيل الفجر فتحت عينها، ونظرت إلى الجبال التي بدأت تتضح في الضوء. ثم رفعت يدها نحو السماء، وتمتعت بالحمد.

عندها فهم نبتُ اليقين أنَّ الحمد ليس إعلاناً بأنَّ الطريق لم يؤلمهم، ولا إنكاراً للبيت الذي سقط والرجل الذي مات والأعوام التي ضاعت؛ بل هو اعترافٌ بأنَّ الحراب، على اتساعه، لم يستطع أن يستولي على الحقيقة كلّها. لقد أخذ منهم أشياء كثيرة، لكنه لم يأخذ الوجهة.

وكانت السيارة تمضي نحو المخيم، بينما يطلع الصباح على أمٍّ استعادت ابنها، وابنٍ أدرك أنَّه لم يكن وحده من يبحث؛ فقد ظلَّت الرحمة، منذ خرج من القرية، تتعقَّب خطواته في هيئة أمٍّ وكتاب وشيخ ومعلِّمٍ وسجَّانٍ بدأ يبحث عن بابه.

ما تبقى من البيت

أقامت سكينه في خيمة قريبة من فريق المتطوعين، ولم تستطع في أيامها الأولى أن تصدّق أنّ البحث انتهى. كانت تستيقظ قبل الفجر، تمدُّ يدها إلى الجانب الذي ينام فيه ابنها، ثم تعيدها سريعاً حين تلمس كتفه، كأنّها تخشى أن يكون وجوده حلاً يفسده التحقق منه. أما نبت اليقين فكان يراقبها وهي تنام، ويقرأ في تجاعيد وجهها سجلّ الأعوام التي غابها؛ فقد تركها امرأة تستطيع حمل جرّة الماء من أسفل الوادي، ووجدتها تمشي متكئة على عصا، تتوقّف بعد خطواتٍ للتلقط أنفاسها.

شعر بذنب لا يستطيع العقل إسكاته كلّهُ. كان يعرف أنّه لم يختر الحرب ولا موت أبيه ولا إغلاق الطرق، وأنّ عودته المبكرة ربما كانت ستقوده إلى القتل أو التجنيد، لكنه ظلّ يرى في جسد أمّه فاتورة غيابه. والذنب تجاه مَنْ نحب لا يخضع دائماً لمنطق البراءة؛ قد يعرف الإنسان أنّه لم يخطئ، ومع ذلك يتنى لو استطاع أن يعود إلى الماضي ويحمل عنهم بعض ما حملوه وحدهم.

لم تعاتبه سكينه. كان ذلك أشدّ عليه من العتاب؛ فقد كانت تسأله عن طعامه وعمله وصلاته، وتتخاشى الحديث عن الليالي التي قضتها وحدها بعد موت أبيه. غير أنّ صمتها لم يكن نسياناً؛ كان الألم يظهر في التفاصيل: في التفاتها كلما سمعت خطي رجلٍ تشبه خطاه، وفي احتفاظها بقميصه مطوياً، وفي قولها «نحن» حين تتحدث عن البيت، ثم توقفها كأنّها تذكرت أنّ نصف الجميع صار تحت التراب.

وحين بدأت تسرد ما وقع، لم تأتِ الحكاية مرتبةً. خرجت منها شظايا: أبوه مسجى قرب الجدار، ونساء القرية يغسلن الدم عن ثوبه، وقبرٌ حُفر على عجل، ومسّاحون عادوا يسألون عن نبت، ثم قذيفةٌ سقطت قرب البيت فشَقَّتْ أحد جدرانها، وأيامٌ عاشت فيها سكينه بين غرفةٍ قائمة ونصف سقف. وبعد الهجوم الأخير خرجت وهي تظنُّ أنَّها ستعود بعد يومين، فحملت المفتاح وتركت أشياء كثيرةً في مواضعها، كما يتركها مَنْ يغادر بيتاً لا مَنْ يودّعه.

لكنَّ القتال امتدَّ، وسقط السقف، وأصبح البيت ركماً. وحين وصلها الخبر، لم تبك الجدران وحدها؛ بكّت الحياة التي كانت مرتبةً داخلها، المواضع التي جلست فيها، والأعياد التي مرّت، والطفل الذي مات، والزوج الذي لم يعد، والولد الذي خرج من الباب ذات فجر. فقد لا يكون البيت أثمن ما يملكه الإنسان من الأشياء، لكنه الوعاء الذي تتخذ فيه الذكريات شكلاً؛ فإذا تهدّم بقيت الذاكرة بلا جدران، تتنقل في صاحبها ولا تجد موضعاً تستقرُّ فيه.

كان نبت يصغي ولا يقاطعها. تعلّم من عمله مع المفقودين أنَّ بعض الجراح لا تحتاج في البداية إلى تفسير، بل إلى شاهدٍ يحتمل سماعها كاملةً. وما أسرع ما يخطئ الناس حين يلقون على المكسور عباراتٍ صحيحةً في غير وقتها؛ يذكرونه بالصبر قبل أن يسمحوا له بالحنن، وبالتعويض قبل أن يعترفوا بما فقد، وبحكمة الله كأنَّ الحكمة تلغي الألم. أمّا الإيمان الناضج فلا يخاف من دموع المؤمن، ولا يعدُّ الحزن اعتراضاً ما دام القلب يعرف وجهته.

حين انتهت سكينه من روايتها، وضعت يدها على المصحف، وقرأت: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. لم تفهم الآية أمراً بإلغاء الأسى؛ فالقرآن نفسه سمى عاماً كاملاً بعام الحزن، ووصف عين يعقوب وقد ابيضّت من الفقد. رأت فيها تحريراً للقلب من

أن يصير ما فاته مالكاً لبقية عمره؛ يحزن الإنسان، نعم، لكنه لا يمنح المفقود حق ابتلاع الموجود، ولا يجعل الركام قبراً يقيم فيه حياً.

بعد أسبوع غادروا الخيم إلى المدينة الساحلية. استأجر نبت غرفةً صغيرةً لأمه قرب المسجد، ووضع فراشها بمحاذاة نافذة ترى منها شريطاً من البحر. وحين رأتَه للمرة الأولى وقفت مأخوذةً أمام اتساعه، ثم قالت إنَّ الماء الذي لا تُرى نهايته يذكّر الإنسان بصغر حزنه، لا لأنَّ الحزن قليل، بل لأنَّ رحمة الله أوسع.

عادت سلمى إلى عملها في ملفات المفقودين، وواصلت السعي لإطلاق أخيها. وكانت تزور سكنية كلَّ يومين، تحمل لها الدواء أو الطعام، ثم تجلس قربها في صمتٍ سرعان ما نما بينهما إلى ألفة عميقة. رأت سكنية في وجه سلمى تعب امرأةٍ حملت انتظاراً طويلاً، وأدركت سلمى أنَّ أمَّ نبت لا تنظر إليها بوصفها موظفةً ساعدت في العثور عليها، بل ابنةً أخرى أعادتها الطرق إلى حضنٍ لم تعرف أنَّها تحتاج إليه.

أما نبت فكان يراقب هذه الصلة وهي تنمو من غير أن يسمي ما يتحرك في قلبه. لم يكن الحبُّ عنده هروباً من الحرب إلى قصةٍ ناعمة، ولا مكافأةً تمنحها الحياة لمن صبر طويلاً؛ كان خوفاً جديداً بقدر ما كان رجاءً. فمن يحبُّ يضع في العالم موضعاً آخر يمكن للألم أن يدخل منه، ويمنح القدر إنساناً جديداً يخشى فقده. وقد جعلته خساراته حذراً من التعلق، كأنَّه يستطيع بتقليل المحبة أن يقلل الحزن.

لكنه أدرك أنَّ القلب الذي يحمي نفسه من الفقد بإغلاق أبوابه لا ينجو، بل يتحول إلى غرفةٍ سليمة الجدران خالية من الحياة. لم يكن الإيمان وعداً بالآل يخسر من يحب، بل طمأنينة بأنَّ المحبة، إذا انضبطت بالله، لا تضيع حتى حين ينتهي شكلها الأرضي. وكان عليه أن يتعلم استقبال النعمة من غير أن يطالبها بتعهّدٍ ضد الزوال.

مع ذلك لم يتعجل الاقتراب من سلمي. ترك العلاقة تنمو في موضعها الطبيعي: عملٌ مشترك، وثقةٌ اختُبرت على الطرق، وصمتٌ لا يحتاج إلى الزينة. كان يعرف أنَّ القلوب في زمن الفقد قد تتعلّق بأول مَنْ يمنحها الأمان، وأنَّ الامتنان قد ينتكر في هيئة حب؛ لذلك انتظر حتى يميز ما يشعر به من حاجته إلى العزاء.

وفي أثناء ذلك عاد إلى الصحيفة. استقبله زملاؤه بوصفه الرجل الذي خاطر بنفسه لإنقاذ أمّه، لكنّه قاوم تحويل الحكاية إلى بطولة شخصية. كتب عن النازحين الذين كانوا معها، وعن المخيمات التي تحوّل البشر إلى ملفات، وعن الطرق التي تستخدم فيها الجماعات الأقارب رهائن. ولم يذكر دموع لقاءه بأمّه؛ فقد رأى أنَّ بعض اللحظات تفقد طهارتها حين تُعرض على الجمهور، وأنَّ الكاتب ليس مالِكاً لكلِّ ما يعيشه كي يحوله إلى مادة.

وبين الأوراق التي حملتها سكينه من القرية وجد وثيقة غريبة. كانت إشعاراً مختوماً يعلن أنَّ الأراضي الواقعة حول الوادي صارت منطقةً عسكريةً مغلقة، وأنَّ العودة إليها ممنوعة حتى إشعارٍ آخر. وفي أسفلها اسم شركةٍ حديثة التأسيس مُنحت حقَّ «استثمار الموارد الطبيعية وإعادة تأهيل المنطقة». لم يفهم نبت في البداية الصلة بين التهجير والاستثمار، لكنَّ ملاحظاتٍ صغيرة بدأت تتجمع: شاحناتٌ ثقيلةٌ شوهدت قرب الجبال، خبراءٌ أجانب عبروا من الطريق العسكري، وقرى أُخليت بحجة الأمن مع أنَّ الاشتباكات ابتعدت عنها.

بدأ يبحث في سجلات الشركة. وجد أنَّ مالكيها واجهاتٌ لأشخاصٍ مرتبطين بقيادة الحرب، وأنَّ المنطقة تحتوي على معادن ثمينة لم يكن أهل القرى يعرفون قيمتها. عندها انكشف له وجه آخر للصراع؛ ربما لم تكن الحرب كُلُّها على الأرض، لكنَّ بعض الذين أداروها اكتشفوا أنَّ الخوف طريقةٌ رخيصة لإفراغ الأرض من أصحابها. تُطرد الأسر بالرصاص، ثم تأتي العقود بلغة القانون لتستولي على ما تركته خلفها.

شعر نبت أن موت أبيه ونحراب البيت لم يعودا حادثين منفصلتين داخل فوضى عامة؛ صاراً جزءاً من مسارٍ يحوّل الدم إلى ملكية، والنازح إلى عائق، والقرية إلى مساحةٍ خالية يمكن رسمها من جديد على خرائط المستثمرين. فالطغيان الحديث لا يحمل البندقية وحدها؛ قد يحمل ختماً وتقريراً وعقداً مكتوباً بلغةٍ هادئة، ثم يفعل بالورق ما بدأه المسلّحون بالنار.

عرض الوثيقة على رئيس التحرير، فتغيّر وجه الرجل. كانت الكأبة عن الاعتقالات خطرة، لكنّ الاقتراب من أموال الحرب أشدّ خطراً؛ فالسلطات قد تتساح أحياناً مع خطابٍ أخلاقيّ عام، لكنها لا تتساح مع اليد التي تتبع مسار المال. طلب من نبت أن يتوقف حتى يجدوا مصادر إضافية، ولم يكن طلبه جنناً، بل ضرورةً مهنية؛ فوثيقةٌ واحدة قد تكون مزوّرة، والاتهام الكبير يحتاج إلى أدلةٍ لا يستطيع الخصم تفكيكها.

بدأ نبت رحلة التحقيق. جمع شهادات النازحين، وصوّر الإشعارات، وتبع تواريخ تسجيل الشراكة، وقارنها بتواريخ الهجمات. وكلها اتسعت الصورة رأى أنّ قريته لم تكن وحدها؛ قرى أخرى أُفرغت بالطريقة نفسها، ثم أُعلنت مناطق مغلقة، ودخلتها معدات التعدين تحت حراسة المسلّحين.

كانت سكينه تراقبه وتفهم من توتره أنّ الطريق يعيده إلى الخطر. لم تطلب منه أن يترك التحقيق، لكنها خافت أن يكون قد تعلّق بالمواجهة حتى صار لا يعرف نفسه خارجها. فالإنسان قد يبدأ مقاومة الظلم واجباً، ثم تتحول المقاومة إلى هويةٍ يحتاج معها إلى ظالمٍ دائم كي يشعر بمعنى وجوده. وكانت تريد لابنها أن يعيش للحق، لا أن يعيش أسيراً لردّ فعله على الباطل.

أصغى إلى خوفها. وسأل نفسه بصدق: هل يبحث عن الحقيقة أم عن طريقٍ يعود به إلى قتالي أبيه؟ هل يريد حماية أرض الناس أم استعادة أرضه وحده؟ وكان يجد في قلبه

الدافعين معاً، فلم يدع طهارةً كاملة. لكنه عرف أنَّ اختلاط النية لا يبطل العمل ما دام الإنسان يجاهد في تصحيحها، وأنَّ الإخلاص ليس حالةً نهائية يصل إليها ثم يأمن، بل مراقبةٌ مستمرة لما يتسلل إلى القلب.

قرأ قول الله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾. وشعر أنَّ الشهادة لله تبدأ من الاستعداد لأن تكشف من نفسك ما تكشفه من خصمك؛ ألا تجعل عدالة القضية ستاراً لأحقادك، ولا أملك رخصةً لتجاوز الدقة، ولا انتماءك إلى الأرض سبباً لإنكار حقوق الآخرين فيها.

اكتمل التحقيق بعد ثلاثة أشهر. كان ملفاً من الوثائق والشهادات والصور، لا مقالةً أدبيةً يستطيعون وصفها بالانفعال. اقترح نبت نشره على حلقات، لكنَّ رئيس التحرير عرف أنَّ الصحيفة ستُغلق بعد الحلقة الأولى، وربما تُصادر البقية. فاتفقوا على نشره كاملاً في الوقت ذاته عبر صحفٍ ومنصاتٍ متعددة، داخل البلاد وخارجها، بحيث لا يستطيع إغلاق بابٍ واحد أن يمنع وصوله.

في الليلة السابقة للنشر، جلست سكيينة قرب النافذة المطلة على البحر. وضعت المفتاح الصديء أمامها، وتأملته طويلاً، ثم أخبرت نبت أنَّ البيت إذا عاد لن يكون أبوه فيه، وأنَّ القرية إذا تحررت لن تعود كما كانت، ومع ذلك ينبغي لهم ألا يتركوا الأرض؛ ليس لأنَّ التراب يُعبد، بل لأنَّ اقتلاع الإنسان من ذاكرته يجعله سهل التشكيل في يد الآخرين. فالانتماء الصحيح لا يحوّل الأرض إلى صنم، ولا يجعل الإنسان يحتقر أرض غيره، وإنما يمنحه جذراً يقف به في العالم من غير أن تذروه مصالح الأقوياء.

عند الفجر ضغط نبت اليقين زرَّ الإرسال.

ظهر التحقيق تحت عنوان:

«الأرض التي أفرغت لأجل ما تحتها»

وخلال ساعات انتشرت الوثائق، وبدأت أسماء الشركة ومُلاكها تتردد علناً. أصدرت الجهات المتهمه بيانات الإنكار، ثم هددت بملاحقة الصحيفة، لكنَّ الصور والعقود كانت قد خرجت من قبضتها. تحرك بعض النازحين للمطالبة بحق العودة، وتقدّم محامون بطعون، وبدأت القضية التي أرادوا دفنها تحت غبار الحرب تكتسب اسماً ووجهاً.

وقبل غروب ذلك اليوم أغلقت صحيفة المرفأ.

وحين عاد نبت إلى المبنى وجد الجنود عند الباب، وزملاءه يحملون أغراضهم إلى الشارع. لم يشعر بالنصر؛ فقد فقد رجالٌ ونساءً أعمالهم، وصارت أسرهم تواجه ضيقاً جديداً بسبب التحقيق الذي قاده. وكان هذا هو الوجه الذي لا يظهر في حكايات البطولة: أنَّ العمل الصحيح قد يجرح أرباء حول صاحبه، وأنَّ نقاء الغاية لا يلغي واجبه في تحمُّل ما يستطيع من العواقب.

وقف زملاؤه حوله، ولم يلبه أحد. كانوا يعرفون أنَّ الصحيفة إذا بقيت مفتوحة بئس دفن هذا الملف، فقد تصبح متجراً للورق لا صحيفة. ومع ذلك بقي في قلبه ثقلٌ لم يخففه تأييدهم.

عاد إلى البيت عند المساء، فوجد سكينه قد وضعت المفتاح داخل كفِّها. وإلى جوارها كانت سلبى تحمل رسالةً وصلت من المعتقل: تقرّر الإفراج عن إياد ضمن مجموعةٍ من السجناء في اليوم التالي، بعدما صار اسمه معروفاً وتعاضم الضغط من أجل قضيته.

اجتمع في الغرفة خبران متناقضان: باب صحيفةٍ أغلق، وباب سجنٍ يوشك أن يفتح. عندئذٍ أدرك نبت أنَّ الحياة لا تمنح الإنسان انتصاراً خالصاً ولا هزيمةً خالصةً؛ تأخذ منه في

اللحظة التي تعطيه، وتفتح أمامه طريقاً وهي تغلق آخر، ليظلَّ قلبه متعلِّقاً بمن بيده الأبواب كلها، لا بالأبواب نفسها.

وفي الصباح، حين خرج إياد من السجن، كان أول ما طلبه أن يرى البحر.

وقفوا جميعاً على الشاطئ: سكينه، وسلمى، وإياد، ونبتُ اليقين. كان الرجل المحرَّر صامتاً أمام الماء، كأنه يتعلَّم الاتساع بعد أعوام الجدران. لم يسأله أحدٌ عمَّا جرى؛ فقد كانت الحرية في ساعتها الأولى تحتاج إلى هواء، لا إلى استجوابٍ جديد تصنعه المحبة بحسن نية.

أما نبت فظلَّ ينظر نحو الجبال البعيدة خلف المدينة. كانت قريته هناك، تحت سلطة الرجال الذين أغلقوا الطريق، وفوق أرضٍ صار ما في باطنها أئمن عندهم من الذين عاشوا على ظهرها.

وأدرك أنَّ نشر التحقيق لم يكن نهاية المعركة، بل بدايتها؛ فقد خرجت الحقيقة إلى الناس، وبقي أن تعود الأقدام إلى الأرض.

العودة إلى الجبل

لم تكن العودة إلى القرية اندفاعاً عاطفياً نحو الركام، بل فعلاً محسوباً أعدَّ له نبتُ اليقين مع النازحين والحامين والوجه الاجتماعي الذين حرَّكهم التحقيق. فقد أدرك أنَّ الأرض إذا عاد إليها فردٌ واحد أمكن اعتقاله في صمت، أمَّا إذا عادت إليها عائلاتٌ تحمل وثائقها وذاكرتها وشهودها، فإنَّ منعها يتحول من حادثة أمنية إلى جريمة مكشوفة. وكانت القضية قد خرجت من حدود مقالٍ صحفي؛ صار للقرى المفرَّغة أصحابٌ يتعارفون بعد تشبُّت، وينشئون لجنةً لحقِّ العودة، ويجمعون سندات الملكية والصور القديمة وشهادات الموت والتَّهجير.

لم يكن جميع النازحين مستعدين للعودة. بعضهم وجد في المدن عملاً ومدرسةً لأطفاله، وبعضهم صار يخاف الجبل الذي كان موطنه بعدما ارتبط في ذاكرته بأصوات القذائف. ومنهم من رأى أنَّ الأرض التي لم تحمِ أبناءها لا تستحقُّ أن يخسروا من أجلها ما بقي لهم. لم يُدْنهم نبت؛ فالانتماء لا يفرض بالسياسات الأخلاقية، ولا يملك من بقي بعيداً عن لحظة الرعب أن يعيِّر الخائف بخوفه. كان يريد للعودة أن تكون اختياراً، لأنَّ الأرض التي يُساق إليها الناس قسراً لا تختلف كثيراً عن الأرض التي يُساقون منها.

أما سكينه فأصرت على الذهاب. حاول نبت أن يقنعها بالبقاء في المدينة حتى يتأكد أمن الطريق، لكنها وضعت المفتاح الصدئ في عنقها، وطوت قيص أبيه داخل حقيبتها. لم تكن تتوقع أن تجد بيتها قائماً، لكنها أرادت أن ترى موضعه بعينها؛ فقد تعبت من تلقي أخبار حياتها على ألسنة الآخرين. وكان في إصرارها شيءٌ يتجاوز الحنين: أرادت أن تقف

عند قبر زوجها، وأن تخبره — كما لو أنَّ الموتى ينتظرون أخبار الأحياء — أنَّ الابن الذي أخرجته من القرية حيًّا عاد إليها حاملاً اسمه ومعناه.

رافقتهم إياد، رغم أنَّ جسده لم يتعافَ من السجن. كانت سلمى تخشى عليه الطريق، لكنَّه رأى في الرحلة أول قرارٍ يتخذه بإرادته منذ سنوات. فالأسير بعد خروجه يحتاج إلى أن يستردَّ ملكية خطواته؛ أن يذهب لأنَّه اختار، ويتوقف لأنَّه أراد، لا لأنَّ باباً فُتح أو حارساً أمر. ولم تكن حريته مكتملة، فقد كان يلتفت إلى الخلف بلا سبب، ويفزع من انغلاق الأبواب، ويترك الضوء مضاءً أثناء نومه. إلا أنَّه بدأ يتعلم أنَّ التعافي لا يعني العودة إلى الشخص الذي كانه قبل السجن، بل بناء إنسانٍ جديدٍ يعرف كيف يحل ما حدث من غير أن يحمله ما حدث إلى الهاوية.

انطلقت قافلة العودة في صباح غائم: شاحناتٌ صغيرةٌ مَحْمَلةٌ بالخيام والماء والأدوات، وسيارات تقلُّ العائلات والصحفيين والمتطوعين. لم تكن جيشاً، لكنها حملت ما تخشاه الجيوش أحياناً: أسماءٌ معلنةٌ، وكاميرات، ووثائق، وأناساً قرروا ألا يكون تهجيرهم خاتمة قصتهم.

كلها اقتربوا من الجبال شعر نبتُ اليقين أنَّ الصبي القديم يستيقظ داخله. عرف انحناءات الطريق رغم ما أصابها من حفر، ورأى السفوح التي ركض عليها حافياً، والوادي الحجري الذي أطلق فيه سفنه المصنوعة من العيدان. غير أنَّ الحرب غيَّرت ملامح المكان؛ الأشجار مقطوعة، والمدرجات مهملة، وعلى القمم مواقع عسكرية تشوِّه انسياب الجبل بأسوارها وأكياس الرمل.

عند أول حاجز أوقفت القافلة. أعلن الجنود أنَّ المنطقة مغلقة بسبب عمليات أمنية، لكنَّ الصحفيين أظهروا تصاريحهم، ورفع النازحون وثائق الملكية، وبدأت الصور تنتقل مباشرةً

إلى خارج المكان. لم يكن قائد الحاجر يملك أمراً يسمح بالعبور، ولم يملك كذلك شجاعة منع عشرات الأسر أمام الكاميرات. انتظر اتصالاً طويلاً، ثم سمح لهم بالمرور بشرط ألا يقتربوا من مواقع الشركة.

كان الشرط اعترافاً ضمنياً بما نفوه. فإذا كانت الشركة وهماً اخترعه التحقيق، فكيف صار لها موقعٌ محظور؟ التقطت نبت التناقض ولم يحوّل لحظة العودة إلى جدال؛ فقد عرف أنّ بعض الأدلة يُستخرج من أفواه أصحابها حين يظنون أنّهم يهدّدونك. ظهرت القرية بعد المنعطف الأخير.

لم يعرفها نبت في اللحظة الأولى. البيوت التي كانت تنتشر على كتف الجبل صار بعضها ركاماً وبعضها هياكل بلا أسقف، وشجرة السدر الكبيرة احترق نصفها، وظلّ نصفها الآخر قائماً بأغصانٍ سوداء وأوراقٍ قليلة. أما المسجد فقد انشقق جداره، وبقي المئذنة كأنّها إصبعٌ مرفوع وسط الخراب، لا تشير إلى نجاة المكان، بل إلى الجهة التي لم يستطع الخراب أن يحوها.

توقفت السيارة عند مدخل القرية. نزلت سكينه ببطء، ووضعت قدميها على التراب، ثم انحنت وأخذت حفنةً منه. لم تقبل الأرض، ولم تتعامل معها كشيءٍ مقدّس بذاته؛ رفعتها إلى وجهها كما يرفع المرء ثوب غائبٍ بقيت فيه رائحته. كان التراب عندها ذاكرةً للكدح والسجود والخبز والقبور، والانتفاء إليه ليس عبادةً له، بل وفاءً لما عاش عليه الناس من حقٍّ وكرامة.

سار نبت إلى البيت خلفها. لم يبقَ منه إلا جدارٌ قصير وعتبة الباب وجزءٌ من الغرفة التي نام فيها. أخرج المفتاح وحاول، بلا وعي، أن يتخيل الباب في موضعه. كان الحديد الذي حافظت عليه أمّه في المنافي قد عاد، لكنه لم يجد قفلاً يدخله. عندها فهم أنّ العودة لا

تستعيد ما مضى؛ إنها لا تعيد الأب إلى مجلسه ولا السقف إلى مكانه ولا الطفولة إلى الجسد. العودة الحقيقية ليست استرجاع الزمن، بل منع الخراب من امتلاك المستقبل أيضاً.

دخل بين الحجارة، ووجد تحت الركام قطعة من الرّف القديم. أزاح التراب بيديه، فظهرت قصاصة سوداء من غلاف دفتر، ثم مسمار صدئ، ووعاء فخاري مكسور. كانت الأشياء تخرج من تحت الردم كأن البيت يسلبه بقايا شهادته. جلست سكينه عند العتبة المهذمة، ولم تبك طويلاً؛ فقد استهلكت المخيمات جزءاً كبيراً من دموعها، وصار الحزن فيها أعمق من أن يحتاج دائماً إلى الماء.

بعد ذلك صعدا إلى المقبرة. كانت شجرة اللوز عند طرفها قد يبست، لكن قبر أبيه بقي معروفاً بحجرين وضعهما أهل القرية عند رأسه وقدميه. جثا نبت إلى جواره، ومسح التراب عن الحجر، وقرأ ما تبسّر من القرآن. لم يقل لأبيه إنه انتصر؛ فالذين ماتوا لا تُغريهم اللغة التي تنبأى بها أمام الأحياء. أخبره في سرّه أنه حاول ألا يجعل موته مصنّعاً للكراهية، وأنه أخطأ وخاف، ودخل السجن، ووجد أمّه، وعاد بالمفتاح الذي لم يعد له باب.

شعر أن المسافة التي بقيت بينهما منذ مفترق الوادي هدأت أخيراً. لقد ظلّ أبوه في ذاكرته واقفاً لا يكتمل وداعه، أما الآن فقد وجد جسده موضعه في الأرض، ووجد الابن موضعاً يضع فيه حزنه. ولم تعد اليد المرفوعة في آخر الطريق سؤالاً، بل بركة صامتة رافقته من غير أن يعرف.

قرأ قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. وأدرك أن علاقة الإنسان بالأرض تبدأ قبل الملكية وتنتهي بعدها؛ خلق من مادتها، ويكده فوقها، ثم يُردُّ إليها مهما اتسعت قصوره أو ضاقت بيوته. لذلك كان الاستعلاء على الناس بسبب

الأرض جهلاً، كما كان اقتلاعهم منها ظلماً؛ فالجميع ضيوف فوق التراب وودائع تحته، وليس لأحد أن يتوهم أن بقوة سلاحه صار مالكا لما هو لله.

بدأت العائلات تنصب الخيام بين بيوتها المهذمة. أشعلت النساء نارا للخبز، وأخذ الرجال يفتحون مجرى الماء القديم. ركض الأطفال بين الركام، يصنعون من الحجارة ألعاباً، وكأنّ الحياة لا تنتظر اكتمال الشروط كي تبدأ. نظرت إليهم وشعر أن العودة لم تكن شعاراً سياسياً، بل هذا الدخان الصاعد من أول موقد، وهذه الضحكة التي خرجت في موضع مرّ منه الرصاص.

غير أن الشركة لم تنتظر طويلاً. عند المساء وصلت مركبات تحمل رجالاً مسلّحين، وتوقّفت قرب شجرة السدر. نزل منها مسؤول يحمل ملفاً محتوماً، وأعلن أن وجود العائلات غير قانوني، وأنّ المنطقة خاضعة لقرار إخلاء. كان يتحدث بلغة إدارية هادئة، كأنّه لا يقف أمام أصحاب بيوت، بل أمام عوائق ينبغي نقلها من موقع مشروع.

أخرج النازحون وثائقهم، فأخرج الرجل وثيقة أحدث تمنح الشركة حق الانتفاع بالأرض. عندئذٍ ظهر جوهر الصراع: أوراق كتبها الأقوياء في غياب أصحاب الأرض تواجه أوراقاً حملها الفقراء من آبائهم. وكان السلاح واقفاً خلف الوثيقة الحديثة، بينما لم يقف خلف القديمة إلا الذاكرة والحق.

اقترب نبت وطلب نسخة من قرار الإخلاء، فرفض المسؤول. صور الصحفيون المشهد، وبدأت المشادة تتسع. لم يرد نبت أن تتحول العودة إلى مواجهة مسلحة؛ فقد كان يعلم أن الشركة تنتظر خطأ واحداً لتصوير الأهالي جماعةً متمردة. لذلك دعاهم إلى الجلوس أمام بيوتهم وعدم الاقتراب من الجنود. كانت المقاومة التي اختاروها بسيطة وقاسية: أن يبقوا في مواضعهم.

جلس الرجال والنساء والأطفال فوق التراب. جلست سكيّنة عند عتبة بيتها، ووضعت المفتاح في حجرها. وقف الجنود أمامهم مرتبكين؛ فقد تدربوا على مواجهة السلاح، لا على مواجهة عجوزٍ تجلس فوق أنقاض بيتها. وكان العنف يحتاج إلى ذريعة، أما المشهد فلم يمنحهم إلا حقيقتهم عاريةً: مسلحون يطردون أمًّا من ركام لا سقف له.

امتدَّ الليل، وبقي الجميع في أماكنهم. انتشرت الصور، ووصل محامون ووجهاء إلى الطريق. ومع ارتفاع كلفة الاقتحام، انسحبت المركبات مؤقتًا، لكنها تركت تهديدًا بالعودة صباحًا مع قوةٍ أكبر.

لم ينم أحد. توزّع الرجال عند أطراف القرية للمراقبة، وبقي نبت قرب شجرة الصدر المحترقة. مرّ يده على جذعها الأسود، فرأى تحت القشرة المحروقة خطأ رقيقًا من الخضرة. كانت الشجرة قد فقدت نصفها، لكنّ الجذر ظلّ حيًّا، يدفع في الخشب المحترق عصاةً لا تراها النار.

اقتربت سلمى ووقفت إلى جواره. لم يقولوا شيئًا؛ كانت الشجرة تتحدث بما يكفي. وفهم نبت لماذا ظلّت الحياة منذ مولده ترسل إليه معنى اليقين في هيئة نبات: مطرٌ قصير فوق أرضٍ مجدبة، وآيةٌ تنبت في قلبٍ مكسور، وشجرةٌ تحترق ولا يموت جذرها.

وقبيل الفجر وصلته رسالةٌ مجهولة المصدر، فيها خريطةٌ تفصيلية لموقع التعدين وسجلُّ الشحنات وأسماء الضباط الذين يتقاضون أموالاً لحماية الشركة. وفي أسفل الرسالة جملةٌ واحدة:

«المفتاح لا يجعل صاحبه حرًّا إذا ظلّ خائفًا من الباب.»

عرف نبت صاحبها قبل أن يقرأ الاسم المشفّر في الملف.

كان سالم، السجّان الشاب، قد بدأ أخيراً يفتح بابه.

الشاهد الذي خرج من الظل

لم تكن الوثائق التي أرسلها سالم مجرد إضافة إلى التحقيق السابق، بل كانت الحلقة التي تربط أطراف الجريمة بعضها ببعض. فقد احتوت على أوامر نقل المسلّحين إلى القرى قبل إخلائها، وكشوفات بأسماء المعتقلين الذين استُخدموا للضغط على أسرهم، وسجّلات شحن المعادن المستخرجة من الجبل، وتحويلات مالية إلى ضباط ومسؤولين وقادة جماعاتٍ تتقاتل أمام الناس ثم تلتقي حساباتها في خزائن الشركة. كانت الحرب في البيانات معركةً بين راياتٍ متخاصمة، لكنها في الوثائق شركةٌ خفيةٌ يتقاسم المقاتلون أرباحها، ويدفع الفقراء رأس مالها من دمهم وبيوتهم.

قرأ نبتُ اليقين الملفات تحت ضوء مصباحٍ صغير، بينما كانت القرية تنتظر القوة التي توعدت بالعودة صباحاً. ومع كلّ صفحةٍ كان يشعر أنّ موت أبيه يخرج من فوضى المصادفة إلى بنيةٍ متعمّدة؛ فالمسلّحون الذين بحثوا عنه لم يكونوا يؤدّون مهمةً أمنيةً وحدها، بل كانوا يصنعون الخوف الذي سيدفع العائلات إلى الرحيل. ولم تكن القذائف التي سقطت قرب البيوت كلّها أخطاء حرب، بل رسائل مكتوبة بالنار: اتركوا ما فوق الأرض لمن يريد ما تحتها.

اشتعل الغضب في قلبه، وراح يتخيّل أسماء الرجال الذين وقّعوا الأوامر جالسين في مكاتبهم البعيدة، لا يسمعون صراخ المصابين ولا يشمّون رائحة البيوت المحترقة. بدت له الوثائق كأنّها تمنحه للمرة الأولى طريقاً واضحاً إلى الثأر؛ يستطيع أن ينشر الأسماء والعناوين وصور

العائلات، وأن يطلق غضب الناس نحوهم بلا تمييز. لكنه توقف عند الحافة التي عرفها من قبل: الفرق بين العدالة والانتقام.

فالعدالة تريد كشف الجريمة وحماية الضحايا ومحاسبة المسؤول بقدر فعله، أما الانتقام فيريد أن يُشبع الألم، ولو أحرق في طريقه أبرياء لم يختاروا جرائم آبائهم. ولو نشر بيانات عائلات المتهمين لكرّر الوسيلة التي استخدموها حين احتجزوا أمّه بسبب كلماته؛ يجعل القرابة ذنباً، ويحوّل الإنسان إلى امتدادٍ لغيره، مع أنّ القرآن أقام المسؤولية على أصلٍ لا يضطرب: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

حذف من الملفات ما يمس الأبرياء، وأبقى ما يثبت مسؤولية الفاعلين. ثم أرسل نسخاً مشفرة إلى محامين وصحفيين وجهات دولية، وحدّد موعداً لنشرها إذا بدأ الهجوم على القرية. لم يعد النشر عنده ردّ فعلٍ غاضباً، بل وسيلة حماية؛ أراد للمتقدمين نحوهم أن يعرفوا أنّ كلّ رصاصة ستفتح ملفاً، وأنّ العتمة التي تهميهم قد انشقت.

لكنّ الوثائق حملت خطراً آخر: كان مصدرها واضحاً لمن يعرف نظام السجن. وإذا نُشرت بصورتها الحالية، فلن يحتاج الضباط إلى وقتٍ طويل لاكتشاف أنّ سالماً هو من سرّبها. كان نبت يملك أن ينقذ القرية بما قد يقتل الرجل الذي منحه الدليل، أو يحجّي سالماً فيضعف قوة الوثائق ويترك العائلات أمام هجوم قريب.

أرسل إليه رسالةً يحذّره فيها، بجاء الرد بعد ساعة: لقد غادر سالم المبنى، وأخرج أمّه وإخوته من بيتهم، لكنه لم يعرف هل وصلوا إلى المكان الآمن. كان يدرك منذ احتفظ بقصاصة مروان أنّ الباب الذي فتحه لن يُغلق من خلفه كما كان؛ فالمؤسسات التي تبني طاعتها على الخوف لا تغفر لمن يكشف أنّه يستطيع قول «لا».

وفي آخر رسالته كتب سالم أنه أمضى سنوات يظن أن حاجته إلى الراتب تبرّر بقاءه، ثم فهم أن الحاجة تفسّر الضعف ولا تحوّل إلى فضيلة، وأنّ الإنسان إذا انتظر زوال الخوف كلّ قبل أن يتخذ موقفاً فلن يتحرك أبداً. كان خائفاً وهو يرسل الملفات، وخائفاً وهو يهرب، لكنه لم يعد يريد للخوف أن يكون الاسم الآخر لحياته.

مع شروق الشمس ظهرت المركبات عند الطريق. كانت أكثر عدداً من مركبات الليلة السابقة، ومعها جرافةٌ قيل إنّها جاءت لفتح الطريق، لكنّ الجميع عرف أنّها قد تُستخدم لهدم ما بقي من الجدران. انتظم الأهالي أمام البيوت، وجلس الأطفال والنساء في الصفوف الأولى رغم اعتراض الرجال؛ فقد رفضت النساء أن يُعاملن بوصفهنّ أجساداً ينبغي إخفاؤها، بينما الأرض التي يملكها تُتزع باسم حمايتهن.

وقفت سكينه عند عتبها المهذّمة، وإلى جوارها سلمي. أما إياد فحمل كاميرا صغيرة، وصار يصوّر الوجوه وأرقام المركبات. كان ارتجاف يده ظاهراً؛ فشهد الرجال المسلّحين أعاد إليه أبواب السجن، لكنه واصل التصوير. لم يكن يحاول أن يثبت أنّه تعافى، بل كان يتصرف من داخل جرحه، وهذا هو التعافي في أصدق صوره: ألاّ تختفي الخوف، بل يفقد قدرته على منع الإنسان من الحركة.

تقدّم قائد القوة وقرأ أمر الإخلاء، ثم منح السكان وقتاً قصيراً للمغادرة. لم يتحرك أحد. كرر الأمر بصوت أعلى، كأنّ ارتفاع النبرة يستطيع أن يمنح الوثيقة شرعيةً فقدتها. وحين ظلّوا جالسين، تقدمت الجرافة أمتاراً.

في تلك اللحظة نُشرت الدفعة الأولى من وثائق سالم.

بدأت هواتف الجنود تهتز في جيوبهم، ووصلت الأسماء والتحويلات إلى وسائل الإعلام. رأى بعضهم أسماء قادتهم مقرونةً بأرقام الأموال، وأدركوا أنّهم لا يقفون لحماية الوطن، بل

لحماية شركة تدفع لمن هم فوقهم وتستخدم أجسادهم في الأسفل. لم يتحول الجنود جميعاً إلى أصحاب ضمائر في لحظة؛ فالإنسان أعقد من أن تغيّره وثيقة واحدة، لكنّ اليقين الذي كانوا يتكئون عليه تصدّع، وصار الأمر الذي بدا عسكرياً يحمل رائحة السرفة.

توقفت الجرافة.

تلقى قائد القوة اتصالاتٍ متلاحقة، وابتعد عن الجنود ليردّ عليها. كان الغضب ظاهراً في حركته، ثم أمرهم بالاستعداد للتقدم. إلا أنّ ضابطاً أصغر رتبةً تردّد، وطلب أمراً مكتوباً باستخدام القوة ضد المدنيين. لم يكن طلبه تمرّداً كاملاً، لكنه نقل الخوف من صدور الأهالي إلى صدر القائد؛ فإذا وقع تحمّل المسؤولية باسمه، وإذا لم يوقع صار الأمر شفهيّاً يمكن إنكاره لاحقاً.

تعلّم نبت يوماً أنّ الاستبداد يبدو كتكّة صلبة من الخارج، لكنه من الداخل شبكة من أشخاصٍ يخشى كل واحدٍ منهم أن يُترك وحده أمام نتيجة ما فعل. ولذلك يعيش القمع على توزيع المسؤولية حتى لا يشعر أحدٌ أنّه القاتل؛ هذا يأمر، وذاك ينقل الأمر، وثالثٌ ينفذه، ورابعٌ يكتب أنّ الضحية قاومت. فإذا عادت الأفعال إلى أسمائها وأصحابها، بدأ البناء في التشقق.

احتشد مزيدٌ من الناس عند مدخل القرية، ووصل محامون وصحفيون. وانتشرت صورة سكينية جالسة فوق عتبتها تحمل المفتاح، حتى صارت وجهاً للقضية. لم تكن تعرف معنى الانتشار ولا ما تفعله صورتها في الهواتف، لكنها عرفت أنّ الجنود لم يتقدموا، وأنّ الصمت الذي أحاط بالقرية بدأ يمتلئ بأعين الشهود.

بعد ساعاتٍ جاء أمرٌ بتعليق الإخلاء مؤقتاً حتى مراجعة العقود. انسحبت القوة والجرافة، وبقي الجنود ينظرون إلى الأهالي من خلف الزجاج. لم يهّل نبت؛ فقد عرف أنّ كلمة

«مؤقتاً» قد تكون استراحةٌ يعيد فيها الظالم ترتيب أدواته، وأنَّ الشركة لن تتخلى بسهولة عن جبلٍ يدرُّ عليها المال. لكنَّ بقاء العائلات يوماً آخر كان انتصاراً حقيقياً بحدود يومه؛ فالانتصارات الكبرى قد لا تأتي دفعةً واحدة، بل تتراكم من أيامٍ يرفض فيها الناس أن يُقتلوا.

وحين هددت القرية، انصرف نبت إلى التحقق من مصير سالم. انقطعت رسائله منذ الصباح، ووصل خبرٌ عن اعتقال حارسٍ حاول الهرب من المدينة. لم يذكر الخبر الاسم، لكنَّ الأوصاف تطابقت. شعر نبت أنَّ الرجل الذي فتح لهم الطريق وقع خلف الباب نفسه، وأنَّ الوثائق التي حمت القرية أصبحت حبلاً يقوده إلى الزنازة.

كان يستطيع أن يحمي المصدر بالصمت، لكنَّ الصمت لن ينفع بعد انكشاف هويته. لذلك أعلن في بيانٍ أنَّ مسرِّب الوثائق شاهدٌ على شبكة فساد، وطالب بحمايته والتحقيق في الأدلة التي قدّمها. لم يذكر دوره في وفاة مروان ولا عمله السابق بوصفه وصمةً تُسقط حقّه؛ فقد أدرك أنَّ التوبة لا تحوِّق حقوق الضحايا، لكنها تفتح للإنسان طريقاً إلى تحملها. وسالم لا يصبح بريئاً لأنّه شهد، لكنه لا يظلُّ مختصراً في أسوأ ما شارك فيه بعدما اختار أن يعرِّض نفسه لكشفه.

أثارت قضيته انقساماً. رأى بعض الناس أنّه جلاّد لا يستحقّ الدفاع، وراه آخرون بطلاً ينبغي تنزيهه من ماضيه. أما نبت فرفض الصورتين؛ فالإنسان ليس ملاكاً كاملاً حين يفعل خيراً، ولا شيطاناً أبدياً حين يخطئ. العدالة تقتضي أن يُسأل سالم عمّا شارك فيه، وأن يُحمى كذلك من الانتقام بسبب شهادته. فلا عصمة للتوبة من الحساب، ولا معنى للحساب إذا أغلق باب التوبة.

في المساء عاد نبت إلى البيت المهْدَم، فوجد سَكينة تزيل الحِجارة الصغيرة من الغرفة القديمة. لم تكن تملك خطةً للبناء، لكنَّ يديها لم تستطِعا الوقوف أمام الركام بلا فعل. انضمَّ إليها، ثم جاء أطفالُ وشباب، وبدأوا يفرزون الحِجارة الصالحة من المحطمة. كانت حركةٌ بسيطةٌ لا تبني جداراً في يوم، لكنها أعلنت أنَّ الخراب لم يعد سيِّد المكان.

بينما كانوا يعملون، وصلت سيارةٌ من المدينة. نزل منها رجلٌ يحمل صندوقاً خشبياً وعدداً من الكتب. كان ظهره أكثر انحناءً، وخطواته بطيئة، لكنَّ نبتاً عرفه قبل أن يظهر وجهه كاملاً.

جاء صالح الوراق إلى القرية.

حمل معه ما بقي من دار البصيرة بعد مصادرة المكتبة: مصحفاً قديماً، وكتباً في التاريخ واللغة، ودفاتر فارغة، واللافتة الخشبية التي بهتت حروفها. لم يأت ليقيم طويلاً؛ كان المرض قد استقرَّ في صدره، وعرف أنَّ أيامه تضيق. لكنه أراد أن يرى المكان الذي أنبت الفتى الذي وجده ذات فجرٍ على الرصيف، وأن يضع الكتب في أرضٍ يحاول أصحاب القوة تحويلها إلى منجم بلا ذاكرة.

اخترأوا غرفةً بقي سقفها قائماً قرب المسجد، ونظَّفوها، ثم علَّق صالح لافتة دار البصيرة فوق بابها. صارت المكتبة التي أغلقت في المدينة تُفتَح من جديد وسط قريةٍ مهْدَمة. لم يكن فيها أكثر من عشرات الكتب، لكنَّ الأطفال تراحوا عند بابها، يلسمون الأغلفة ويسألون عن الصور والقصص.

جلس صالح على حجرٍ أمام الغرفة، يراقبهم وعيناه تلمعان. وفهم نبت أنَّ الجذر لا يحفظ وجوده بالتشبُّث بالتراب وحده، بل بما ينبت فوقه من معنى؛ فالقرية التي تستعيد بيوتها

وتترك عقول أبنائها خاليةً قد تُهدم من داخلها ولو بقيت جدرانها، أما الكتاب المفتوح في بيت مهْدَم فهو إعلانٌ بأنَّ المستقبل بدأ قبل اكتمال البناء.

اقترب نبت من صالح، وجلس عند قدميه كما كان يجلس في المكتبة القديمة. لم يحتاج الشيخ إلى السؤال عمّا سيفعله بعد ذلك؛ كانت القرية والوثائق وسالم والأطفال تجيب كلُّها. وقد رأى أنَّ تلميذه لم يعد يحتاج إلى مَنْ يختار له الطريق، بل إلى مَنْ يذكِّره أنَّ الطريق المستقيم لا يُعرف فقط بالغاية التي ينتهي إليها، وإنما بالهيئة التي يسير بها الإنسان: عادلاً حين يخاصم، متواضعاً حين يعلم، رحيماً حين يقدر، ومستنداً إلى الله حين تنقطع عنه أسباب الأرض.

وقبل الغروب، فتح صالح المصحف وقرأ بصوتٍ خافت: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

نظر نبت اليقين إلى شجرة السدر المحترقة، فرأى الخضرة الدقيقة تشقُّ السواد. وأدرك أنَّ ثبات الأصل لا يعني أنَّ الريح لن تأتي، ولا أنَّ النار لن تمسَّ الأغصان؛ بل يعني أنَّ في العمق عهداً بالحياة، كلما ظنَّ الخراب أنه أتمَّ عمله، دفع من جوف الأرض غصناً جديداً يشهد أنَّ النهاية لم تكن له.

الذين يتركون نورهم وراءهم

لم يعيش صالح الوراق في القرية طويلاً. كان المرض قد أكل من رثيته بصمت، وكلُّ الطريق الذي قطعه من المدينة إلى الجبل بدا كأنه أنفق فيه ما بقي له من قوة. ومع ذلك كان يستيقظ كلَّ صباح قبل الأطفال، ويفتح باب الغرفة التي صارت مكتبة، ويمسح الغبار عن الرفوف القليلة، ثم يجلس إلى طاولته القديمة يصلح كتاباً ممزقاً؛ كأنه أراد أن يؤدي عمله حتى آخر يوم، لا لأنَّ الكتب ستنفد إن غاب، بل لأنَّ الإنسان يحتاج إلى أن يلقى خاتمته وهو منحنٍ على المعنى الذي عاش له.

كان أطفال القرية يدخلون عليه بأقدامٍ مغبرةٍ وأصواتٍ مرتفعة، فيعلِّمهم كيف يحملون الكتاب من غير أن يكسروا ظهره، ثم يترك لهم حرية اكتشافه. لم يكن يريد أن يصنع منهم نسخاً من أفكاره؛ فقد رأى في حياته كثيراً من المعلِّمين يحبُّون طاعة التلاميذ أكثر من نموِّهم، ويظنون أنَّ نجاح التربية أن يظلَّ المتعلم واقفاً داخل ظلِّ أستاذه. أما صالح فكان يرى أنَّ المعلم الحقَّ يفتح للإنسان نافذة، ثم يفرح حين يخرج منها إلى أفقٍ لم يبلغه معلِّمه.

وكان نبتُ اليقين يزوره عند المساء، بعد أن ينتهي من اجتماعات لجنة العودة وجمع الأدلة ومساعدة الناس في ترميم البيوت. يجلس قربه في صمت، ويشعر أنَّ الرجل ينسحب من الدنيا قليلاً كلَّ يوم. لم يكن الموت غريباً على نبت، لكنه هذه المرة جاءه ببطء، مانحاً إياه فرصة الوداع التي حُرِّمها مع أبيه ومروان. ومع ذلك اكتشف أنَّ معرفة اقتراب الفقد لا تجعله أخف؛ إنَّها تطيل ظله فحسب، وتجعل كلَّ حركةٍ عادية مشبعةً بسؤال: أهذه آخر مرة؟

في إحدى الليالي أعاد صالح إلى نبت قلمه الأسود القديم. كان قد أعطاه له يوم غادر المدينة، ثم استعاره في القرية ليكتب أسماء الكتب في سجل المكتبة الجديدة. وضعه في يده، وأشار إلى الدفاتر الفارغة. فهم نبت أن الشيخ لا يورثه أداة كتابة فحسب، بل يسلمه ما بقي من مسؤوليته؛ أن يحفظ للكان ذاكرته، وأن يكتب من غير أن يجعل الكلمة سلطةً جديدة، وأن يتذكر أن القلم الذي لا يخني للحق قد يصير سوطاً أنيقاً في يد صاحبه.

في تلك الأيام كانت قضية سالم تتسع. تأكد أنه معتقل في المبنى ذاته الذي كان يعمل فيه، لكن اسمه لم يظهر في سجلات السجناء. صار الحارس غائباً خلف الباب الذي حمل مفاتيحه سنوات، وتذوق العجز الذي كان يراه في وجوه الرجال ولا يستطيع فهمه كاملاً. لم يكن في ذلك عدالةً شعرية كما تخيل بعض الشامتين، بل إعادة إنتاج للجريمة؛ فالظلم لا يصبح عدلاً بمجرد أن ضحيته الجديدة شاركت فيه قديماً.

جمع نبت شهادات من أسر المعتقلين الذين ساعدتهم سالم خفية. ظهرت قصص لم يعرفها: دواءً أدخله إلى مريض، ورسالةً أوصلها إلى أم، واسم سرّبه إلى محام، وماءً نظيفً وضعه قرب زنانه. كانت أعمالاً صغيرة لا تحو سنوات صمته، لكنها كشفت أن ضميره لم يستيقظ في لحظة واحدة، بل ظلّ يقاوم تحت الرماد، يرسل إشاراتٍ ضعيفة حتى امتلك شجاعة الاشتعال.

كما ظهرت شهادات أخرى عن وقوفه أثناء تعذيب سجناء من غير أن يتدخل، وعن تنفيذ أوامر نقل رجال لم يعودوا. لم يحذف نبت هذه الوقائع من الملف، رغم أنها قد تضعف الحملة المطالبة بحمايته. كان يعلم أن إنقاذ سالم بكذبة سيحول الدفاع عنه إلى نسخة من البيانات التي قاومها. فالتوبة لا تطلب تزوير الماضي، بل تبدأ حين يراه الإنسان كاملاً ويحتمل مسؤوليته، راجياً أن يكون ما بقي من حياته جواباً صادقاً عما مضى.

كتب مقالاً بعنوان «حق المذنب في أن يشهد»، قال فيه إن المجتمع الذي لا يترك للعائد من الخطأ باباً إلا الهلاك يدفع المترددين إلى البقاء داخل مؤسسات الشر؛ فما الذي يدعو رجلاً إلى كشف الجريمة إذا كان سيعامل بعد شهادته كما لو أنه لم يشهد؟ وفي المقابل، فإن تحويله إلى بطلٍ منزّه خيانةً لضحاياه. الطريق الأعدل أن يُحصى شاهداً، ويُحاسب شريكاً بقدر ما ثبت عليه، ويُسمح لتعاونيه في كشف الشبكة أن يكون جزءاً من الميزان، لا ممحاة تحو كل شيء.

انتشر المقال، ووصلت القضية إلى جهة قضائية كانت تحاول الاحتفاظ بقايا استقلالها وسط انهيار الدولة. صدر أمرٌ بالكشف عن مكان سالم، ولم يُنفذ فوراً، لكنه جعل قتله في الخفاء أكثر صعوبة. ومرةً أخرى عمل الاسم بوصفه حبل نجاة؛ فالطغيان يحب الإنسان بلا اسم، لأنّ المجهول يمكن أن يختفي من غير أن يترك وراءه سؤالاً.

وفي الوقت نفسه بدأت الشركة حملةً مضادة. دفعت لكتابٍ يتهمون نبتاً باستغلال قضية الأرض بحثاً عن الشهرة، وروجت أن النازحين باعوا أراضيهم طوعاً، وأن مشروع التعدين سيجلب الوظائف والتنمية. لم تكن الأكاذيب ساذجة؛ حملت جزءاً من الحقيقة، فقد وقع بعض السكان عقود بيع فعلاً، لكنهم وقّعوها في الخيمات بأثمان زهيدة تحت ضغط الجوع واليأس. وكان السؤال الأخلاقي الذي أخفته الشركة: هل تكون الصفقة حرة حين يشتري القوي من إنسانٍ جرّده أولاً من قدرته على الرفض؟

تسلّت الحملة إلى القرية. بدأ بعض العائدين يسألون عما سىأكلونه إذا توقّف المشروع، وقال آخرون إنّ الحجارة والذكريات لا تطعم الأطفال. ولم يملك نبت جواباً سهلاً؛ فالدفاع عن الأرض من غير تقديم طريقٍ للعيش قد يتحول إلى مطالبة الفقير بأن يضحي باسم مبادئ

يشرحها له مَنْ يملك راتبه. ولم يكن كافياً أن يكشف السرقة؛ كان عليهم أن يصنعوا بديلاً يمنع الناس من بيع حقوقهم تحت ضغط الحاجة.

اقترح إياد تأسيس تعاونية لأهل القرى، تعيد زراعة المدرجات وتشارك في استثمار الموارد وفق شروط تحفظ الأرض والبيئة وحقوق السكان. لم يكن ضدَّ استخراج ما في الجبل، بل ضد أن يُستخرج الإنسان من فوقه أولاً. فالثروات ليست لعنةً في ذاتها، لكنّها تصبح كذلك حين تتحول من نعمةٍ عامة إلى سببٍ لتهجير أصحابها وتمويل البنادق التي تحرس سارقها.

بدأ الشباب تنظيف قنوات الماء وإصلاح الطريق الزراعية. واستُخدمت بعض التبرعات لشراء بذورٍ وأدوات، بينما تولّت سلمي تسجيل الأسر وضمان ألاّ تستولي الوجوه النافذة على المشروع الجديد. كانت تعرف أن الظلم لا يأتي من الخارج وحده؛ قد ينبت داخل الضحايا أنفسهم إذا عادت العصبية والمصالح الصغيرة. وربما يهزم المحتلُّ ويبقى في النفوس نموذجُه: يتغيّر اسم المالك ولا تتغيّر طريقة الاستحواذ.

أخذ نبت يقترب من سلمي أكثر في تلك الأشهر، لا عبر اعترافاتٍ طويلة، بل عبر ما كشفه العمل من طباعهما. رآها حين تختلف، وحين تنعب، وحين ترفض أن تجعل أخاها فوق سائر المفقودين. ورأته حين يخطئ في تقدير موقف، وحين يستبدُّ به الغضب، وحين يعود إلى نفسه ويعتذر بلا دفاعٍ طويل. كان الحبُّ ينمو بينهما في الأرض الواقعية، لا في الصورة التي يصنعها كلُّ منهما عن الآخر، ولهذا كان أقلَّ اشتعالاً من العشق العابر، وأكثر قابليةً لأن يصير بيتاً.

رأت سكينه ما لم يقله الاثنان. ولم تدخل إلا بأن قربت سلى منها، ومنحتها موضعاً داخل تفاصيل البيت الذي لم يُن بعد. كانت تعرف أن بعض العلاقات تفسدها كثرة التسمية قبل أن تشتد جذورها، فتركت المعنى ينضج تحت الصمت كما تنضج الحبة في التراب.

وفي مساء بارد، اشتد المرض على صالح. نُقل إلى الغرفة التي أقامت فيها سكينه، واحتشد حوله نبت وإياد وسلى وبعض أطفال المكتبة. كان تنفّسه متقطعاً، لكنه ظلّ واعياً. طلب المصحف، ففتحه نبت قرب، وأخذ يقرأ من سورة الفجر. وحين بلغ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، تحرّكت شفتا الشيخ كأنّه يردُّ على نداءٍ لا يسمعه غيره.

مات صالح قبيل الفجر، ويده فوق دفتر المكتبة.

لم يخرج موته بصراخ ولا اضطراب؛ كان هادئاً كصفحةٍ بلغت آخر سطرها، لا لأنّ الحياة انتهت بلا نقص، بل لأنّ الرجل ظلّ وفيّاً لوجهته حتى النهاية. وحين غسلوه وجد نبت في جيبه ورقةً صغيرة كتب عليها أسماء الأطفال الذين بدأوا استعارة الكتب، وإلى جوار كلّ اسم عنوان الكتاب الذي يناسبه. حتى وهو يقترب من موته، كان يفكر في الصفحات التي ينبغي أن تصل إلى من سيقون بعده.

دُفن قرب شجرة السدر، في موضع يرى منه باب المكتبة. وقف نبت عند قبره وشعر أنّه يدفن أباً ثانياً، لكنّه لم يشعر باليتم نفسه الذي شعر به بعد موت أبيه؛ فقد تعلّم أنّ الذين يربّون فينا معنى لا يغادرون كاملين. تنتهي أصواتهم، ويبقى ميزانهم في اختياراتنا، كأنّ الموت ينقلهم من خارجنا إلى أعماق موضع فينا.

بعد الجنائز ففتح نبت المكتبة. دخل الأطفال واحداً واحداً، وجلسوا في هدوءٍ لم يعتادوه. وضع قلم صالح فوق الطاولة، وفتح دفتر الإعارة عند الصفحة التي توقفت فيها يده. ثم كتب التاريخ واسم أول طفلٍ استعار كتاباً بعد رحيل الورّاق.

كان ذلك الفعل الصغير عزاءه: ألاّ تتحول محبة الميت إلى وقوفٍ طويل عند قبره، بل إلى استمرار الخير الذي كان سيقوم به لو بقي. فالوفاء ليس أن نكرر أسماء الراحلين حتى تصير أجزاننا نصباً لأنفسنا، وإنما أن نحمل النور الذي تركوه إلى موضع أبعد مما استطاعت أعمارهم بلوغه.

وفي ظهر اليوم نفسه وصلت إلى القرية سيارةً رسمية. نزل منها محامٍ يحمل أمراً قضائياً بتعليق أنشطة الشركة وفتح تحقيقٍ في عقودها، ومعه خبرٌ آخر: ظهر سالم حياً في أحد مراكز الاحتجاز، وتقرر نقله إلى سجنٍ معنٍ تمهيداً للتحقيق في شهادته وفي مسؤوليته عما وقع داخل المبنى الرمادي.

لم يكن حراً، لكنه لم يعد مفقوداً.

نظر نبت إلى قبر صالح، ثم إلى المكتبة وشجرة السدر والبيوت التي بدأت جدرانها ترتفع. شعر أن العدالة لم تأتِ كاملة، وأنها ربما لن تأتي في الدنيا كاملة أبداً؛ لكنّ النقص لا يجعل السعي عبثاً. يكفي أحياناً أن ينتقل الإنسان من ظلمةٍ لا اسم لها إلى قضيةٍ معلنة، ومن قبرٍ مجهول إلى شاهدٍ يُسمع، ومن ركابٍ صامت إلى حجرٍ يوضع في أول الجدار.

غير أن الشركة لم تكن قد قالت كلمتها الأخيرة. ففي الليلة التالية اختفى أحد الشهود الرئيسيين، وأُحرقت غرفة الوثائق التابعة للتعاونية، ووصل إلى نبت تحذيرٌ أخير: إذا لم تغادر القرية قبل طلوع القمر القادم، فلن يجدوا له قبراً إلى جوار أبيه وصالح.

قرأ الرسالة، ثم أحرقها في موقد البيت. لم يكن احتقاراً للخطر، بل رفضاً لأن يجعل التهديد
مركز حياته. نظر إلى الجدار الذي بناه الأهالي حتى منتصفه، وإلى سكينه التي تعجن
الخبز، وسلمى التي ترتب ما نجا من السجلات، وإياد الذي يعلم طفلاً استخدام الكاميرا.
لقد اقتربت المواجهة الأخيرة، لكنه عرف الآن أنها لن تكون معركة رجلٍ واحد ضدَّ
شركة، ولا ثار ابنٍ لأبيه؛ ستكون السؤال الذي بدأت به حياته كلها:
هل يستطيع الإنسان أن يبقى مستقيماً حين يصبح الطريق المستقيم أكثر الطرق كلفة؟

الطريق الذي يشبه صاحبه

لم ينتظر نبتُ اليقين طلوع القمر القادم، ولم يغادر القرية. لكنه لم يتعامل مع بقاءه بوصفه تحدّيًا بطوليًّا يُعلن للناس؛ فقد تعلّم أنّ من يرفع صوته في وجه التهديد قد يمنح خصمه خريطةً أسهل لضربه. وزّع نسخ الوثائق على أماكن متعددة، وسجّل شهادات الأهالي بالصوت والصورة، وأرسلها إلى محامين وصحفيين خارج البلاد، ثم وضع خطةً لإخلاء الأطفال والنساء إذا وقع هجوم.

كانت سكينه بين الذين رفضوا المغادرة. لم تعد تقوى على الركض، لكنها رأت أنّ الخطر الذي قد يدركها في بيتها أقلّ قسوةً من حياةٍ جديدةٍ تقضيها متنقلةً بين الخيام. ولم يحاول نبتُ إجبارها؛ فقد أدرك أنّ الحماية التي تلغي إرادة من تحب قد تتحول إلى استبدادٍ رقيق، وأنّ أمّه ليست شيئاً ثميناً يخبئه، بل إنسانٌ له حقُّ اختيار الموضع الذي يقف فيه.

أما سلمى فقد حوّلت غرفة المكتبة إلى مركزٍ لحفظ السجلات. ربّبت كلّ وثيقةٍ في ثلاث نسخ، ووضعت سجلات المفقودين إلى جوار عقود الأرض، كأنّها تجمع في مكانٍ واحد ما حاولت الحرب تفريقه: أسماء الناس وذاكرة الأرض. وكان إياد يدرب مجموعةً من الشباب على التصوير وتحديد المواقع وحفظ المواد خارج الأجهزة التي يمكن مصادرتها؛ فقد خرج من السجن مقتنعاً بأنّ الصورة لا توقف الرصاصة، لكنها قد تمنع قاتلها من كتابة الرواية وحده.

مرت أيامٌ بلا هجوم، وكان الانتظار يستهلك الأعصاب أكثر من المواجهة. فحين يعرف الإنسان موعد الخطر يستعدُّ له، أمّا التهديد المؤجل فيدخل معه إلى نومه وطعامه وصلاته، ويجعله يفسّر كلَّ صوتٍ بوصفه بداية النهاية. أدرك نبت أنّ الخوف لا يحتاج إلى تنفيذ وعده كي ينجح؛ يكفيهِ أن يحتلّ الخيال، فيعيش المرء الكارثة مئات المرات قبل أن تقع مرةً واحدة أو لا تقع.

كان يردُّ قلبه إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. ولم يفهم النبي عن الخوف إلغاءً لارتجاف الجسد، بل تحريراً للقرار من سلطان الارتجاف؛ فالخوف الغريزيُّ يحْيي الحياة، أما الخوف الذي يُطاع في معصية الحق فيتحول إلى سيّد. وكان عليه أن يشعر بالخطر كاملاً، ثم يضعه في حجمه الصحيح أمام الله.

في الليلة السادسة وصلت إلى القرية سيارةً واحدةً بلا لوحات. لم يخرج منها مسلّحون، بل رجلٌ أتيق الثياب يحمل حقيبة جلدية، ويقول إنّه مفوّضٌ للتفاوض. جلس في الغرفة التي كانت بيت نبت، تحت سقف لم يكتمل، ووضع أمامه عرضاً مكتوباً: مبلغٌ كبير، ومنزلٌ في المدينة، ومنصبٌ إعلاميٌّ في المؤسسة التابعة للشركة، وتعويضٌ خاص لسكينة عن البيت والأرض. وفي المقابل يتوقف نبت عن النشر، ويغادر القرية، ويُقرُّ بأنّ الوثائق وصلته من جهةٍ مجهولة ولا يستطيع التحقق من صحتها.

لم يكن العرض رشوةً ساذجة؛ صيغ بلغة التسوية وحماية المستقبل، وجاء في الوقت الذي احتاجت فيه القرية إلى المال، واحتاجت أمُّه إلى العلاج، وفقد زملاؤه أعمالهم، وصارت التعاونية مهددةً بالإفلاس. بدا المبلغ قادراً على أن يفعل من الخير ما تعجز عنه مواقفه: يبني البيت، ويعالج سكينة، ويفتح مكتبةً أكبر، وربما يساعد عشرات الأسر.

هنا ظهرت الفتنة في صورتها الأخطر؛ لم تقل له: خذ المال لتصبح فاسداً، بل قالت: خذه لتفعل الخير. أرادت أن تجعل الفضائل نفسها شهوداً لصالح خيانتها، وأن تقنعه بأن الوسيلة الملوثة تطهرها النتيجة النافعة. وقد عرف نبت أن المال الذي يُمنح لإسكات الحقيقة لا يتحول إلى حلالٍ لأنه بُني به مسجد أو أُطعم به فقير؛ فالخير لا يحتاج إلى أن يُروى من ماء الخيانة.

رفض العرض، لكنه لم يهن الرجل. أدرك أن المفاوض نفسه موظفٌ يؤدي مهمة، وربما بنى حياته على القدرة على تسمية الرشوة تعويضاً، وشراء الضمائر تسوية. كان الشرُّ في هذه الغرفة هادئاً، متعلماً، نظيف الثياب، لا يحتاج إلى بندقية لأنه يعرف أن بعض النفوس تفتح له أبوابها إذا جاء في هيئة فرصة.

قبل أن يغادر، أخبره الرجل أن الذين يقفون خلف الشركة لا يخشون؛ فإذا تعدّ شراء الخصم أمكن شراء من حوله، وإذا تعدّ إسكات الكلمة أمكن إغراقها بين ألف كذبة. ثم حمل حقيبته ومضى، تاركاً العرض فوق الطاولة كأنه واثق أن الليل سيجعله أكثر إغراءً.

ظلّ نبت وحده أمام الورقة. لم يمزقها؛ أراد أن يحتفظ بها دليلاً. لكنه شعر بثقل القرار حين سعلت أمّه في الغرفة المجاورة، وحين رأى من النافذة رجلاً من النازحين يغطي أطفاله ببطانية رقيقة. سأل نفسه: أليس من الأتانية أن يحافظ الكاتب على نقاء ضميره بينما يدفع الآخرون ثمنه؟ ثم أعاد السؤال إلى موضعه الصحيح: هل المال معروضٌ لإنقاذ الناس حقاً، أم لترك الشركة تستولي على مصدر رزقهم كلّ لقاء فتاة عاجل؟

قرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. كان المبلغ كبيراً في حسابه، لكنه قليلٌ أمام ما تُطلب في مقابلة: الأرض، والشهادة، ودم أبيه، واسم مروان، ومصير سالم،

وحقُّ الأجيال التي لم تولد بعد. فالقلة والكثرة لا تُقاسان بعدد النقود وحده، بل بقيمة الشيء الذي يباع من أجلها.

عند منتصف الليل اندلع الحريق في مخزن التعاونية.

امتدت النار سريعاً إلى الأيكاس والأخشاب، وارتفعت ألسنتها في الظلام. هرع

ما لا تستطيع النار أن تأخذه

لم ينتظر نبتُ اليقين طلوع القمر القادم. كان يعرف أنَّ التهديد الذي يحدّد موعداً قد يكون محاولةً لإرغامه على الحرب، وقد يكون ستاراً لهجوم يقع قبل أن يستعدَّ له. لذلك وزّع نسخ الوثائق على أكثر من مكان، وحفظ ما بقي منها خارج القرية، ووضع مع المحامين خطةً لنشر الملفِّ كاملاً إذا انقطع الاتصال. ثم طلب من الأهالي ألا يحملوا السلاح داخل البيوت؛ فقد كانت الشركة تنتظر صورةً واحدة لرجلٍ مسلّح كي تحوّل أصحاب الأرض في نشراتها إلى جماعةٍ خارجة على القانون.

لم يوافقهم الجميع. كان بين العائدين شبابٌ فقدوا آباءهم وإخوتهم، ولم يعودوا يؤمنون بأنَّ الوثائق تستطيع الوقوف أمام البنادق. رأوا أنَّ الحقَّ الذي لا تحرسه قوةٌ يتحول إلى استعطاف، وأنَّ من يملك السلاح لا يفهم إلا لغته. لم يسخر نبت من غضبهم؛ فقد عرفه في قلبه، وعرف أنَّ الوعظ بالهدوء يكون مهيناً حين يصدر عن من لم يُصب بأذى. لكنه حاول أن يبيّن لهم أنَّ القوة ليست صورةً واحدة، وأنَّ حمل السلاح في اللحظة التي اختارها خصمهم قد يمنحه الانتصار الذي عجز عن أخذه بالعقود.

كان يدرك كذلك أنَّ الامتناع عن السلاح ليس حكماً مطلقاً في كلِّ حال؛ للإنسان حقٌّ في دفع العدوان وحماية النفس، لكنَّ حقَّ الدفاع يحتاج إلى عقلٍ يقدر المآلات، لا إلى غضبٍ يبحث عن أول إصبع يضغظ الزناد. وكانوا في تلك اللحظة محاطين بأعين الصحافة والمحاكم، فيما كانت الشركة تفقد شرعيّتها. وإذا حولوا القرية إلى ساحة قتال، اختلطت دماء المعتدين بالمدافعين، وضاعت الحقيقة بين بيانات الطرفين.

أقاموا نوبات مراقبة، وثَبَّتوا مصابيح عند المداخل، ونقلوا الأطفال وكبار السن إلى البيوت الأبعد عن الطريق. أما غرفة الوثائق المحترقة فقد جعلوها شاهداً بطل أن يخفوها؛ تركوا جدرانها السوداء كما هي، وعلَّقوا على بابها نسخاً جديدة مما أراد الحريق محوه. صار كلُّ رماذٍ دليلاً على أنَّ هناك مَنْ يخاف الورق.

في تلك الأيام وصل إلى نبت عرضٌ غير متوقَّع. جاءه رجلٌ أنيق الثياب، لا يحمل سلاحاً ولا يتحدث بفظاظة، وقدَّم نفسه مستشاراً للشركة. لم ينكر الفساد، ولم يهدده، بل عرض تسويةً واسعة: تحتفظ الأسر بجزءٍ من أراضيها، وتحصل على تعويضاتٍ ووظائف، ويُعيَّن نبت مسؤولاً عن مؤسسةٍ تنمويةٍ تموِّلها الشركة. وفي المقابل يتوقف عن نشر بقية الوثائق، ويصف ما وقع بأنَّه تجاوزاتٌ فردية جرى تصحيحها.

كان العرض أذكى من التهديد؛ فالتهديد يجمع الإنسان حول مبدئه، أمَّا الامتياز فيفكِّكه من الداخل. ويمكن لنبت أن يقنع نفسه بأنَّه لم يبيع القضية، بل انتقل من الاحتجاج إلى التأثير، وأنَّ الأموال التي سيحصل عليها ستبني البيوت والمدرسة والمستشفى. وربما حقق عبر التسوية لأهل القرية ما لن تحقِّقه المحاكم بعد سنوات.

لكنَّه رأى الفخَّ القابع تحت اللغة الرحيمة. أرادوا أن يشتروا صوته بأموالٍ مأخوذة من الحقِّ الذي يطالب به، وأن يحولوه من شاهدٍ على الجريمة إلى واجهةٍ أخلاقية لها. وستبني المؤسسة بعض البيوت، نعم، لكنها ستجعل الناس يشكرون السارق على إعادته جزءاً مما أخذ، بينما يحتفظ هو بالجليل والقرار والرواية.

لم يرفض فوراً. أخذ نسخة العرض ودرسها مع اللجنة والمحامين، لأنَّ رفض كلِّ تفاوض قد يكون صورةً من صور التعالي على حاجات الناس. ثم عاد بشرطٍ واحدٍ واضح: اعترافٌ

كامل بحقّ الأهالي في الأرض، وتحقيقُ مستقل في التهجير والقتل، وإدارةُ مشتركة شفافة لأيّ استثمارٍ مستقبلي، بلا حصانة لمن ثبت تورطه.

اختفى الرجل الأنيق، ولم يعد.

عرف نبت أنّ الشركة لم تكن تتفاوض على حلٍّ، بل على ثمنه الشخصي. وحين عجزت عن شرائه، لم يبقَ أمامها إلا إخافته أو إزالته.

في الليلة الموعودة كان القمر ناقصاً، يخرج من بين الغيوم ثم يختفي، والريح شديدةً تمرُّ بين البيوت التي لم تكتمل سقوفها. جلست سكيّنة قرب الموقد، تقلب الخبز على الصفيحة، بينما كانت سلمى تنقل آخر السجلات إلى المكتبة. أما إياد فثبت كاميراتٍ صغيرةً عند مداخل القرية وربطها بجهاز يرسل الصور تلقائياً إلى خارجها.

قرب منتصف الليل انطفأت شبكة الاتصال.

بعدها بدقائق ظهرت أضواء المركبات في الوادي.

لم تأتِ القوة هذه المرة بملابس رسمية، بل رجالٌ ملثمين يمكن إنكار صلتهم بأيّ جهة. تقدمت سيارتان من المدخل الغربي، بينما التفت مجموعةٌ أخرى عبر الممر الخلفي. لم يكن هدفهم إخلاء القرية بإجراءٍ معلن، بل إحراق المخازن وترويع العائدين وخطف نبت، ثم ترك الفوضى تُنسب إلى نزاع محلي.

دقّ إياد جرس المسجد، فاستيقظت القرية. خرج الرجال إلى الطرق، واحتشدت النساء قرب الأطفال. أضيئت المصابيح التي تعمل بالبطاريات، وبدأ التصوير المحلي رغم انقطاع الشبكة. كان المهاجمون يريدون الظلام، فواجههم الأهالي بما استطاعوا من الضوء.

أطلقت رصاصاتٌ في الهواء، ثم اشتعلت النار في مخزن الأدوات الزراعية. ارتفعت ألسنتها سريعاً، وحملتها الريح نحو المكتبة. ركض نبت وإياد وعددٌ من الشباب بالماء والتراب، بينما كان صالح الغائب حاضراً في كلّ كتابٍ يهدده اللهب. لم تكن الكتب أثمن من الأرواح، لكنهم عرفوا أنّ إحراق المكتبة مقصودٌ لذاته؛ فقد أراد المهاجمون أن يعلنوا أنّ المعرفة التي فتحت عيون القرية ستدفع ثمنها.

وصلت النار إلى جانب السقف. دخل نبت وسط الدخان، وأخذ يناول الكتب إلى الواقفين عند الباب. كان المصحف القديم ودفترا الإعارة وقلم صالح فوق الطاولة. حملها تحت ثيابه، ثم عاد إلى الداخل يبحث عن الصناديق الأخرى. صاحبت به سلمي أن يخرج، لكنّ الدخان ابتلع صوتها، وسقط جزءٌ من الخشب المحترق خلفه.

في تلك اللحظة لم يفكر في البطولة، بل شعر بخوفٍ بدائي من أن يموت داخل غرفةٍ ضيقة بعدما نجا من السجن والطرق. تذكر أمّه خلف الجدار، وأدرك أنّ إنقاذ كلّ كتابٍ لا يساوي أن يتركها وحيدةً مرةً أخرى. خرج بما استطاع حمله، وترك النار تأكل ما عجز عنه. كان ذلك مؤلماً، لكنه تعلّم أنّ الوفاء للمعنى لا يعني الهلاك من أجل صورته المادية؛ فالكتب يمكن أن تُطبع من جديد، أمّا الحياة التي تحملها فلا تُستعاد إذا ذهبت.

انتقل المهاجمون نحو البيت المهدم. رأى نبت رجلاً يقتاد سكينه من ذراعها، والمفتاح يتأرجح في عنقها. اندفع نحوه، فاصطدم بآخر وسقطا بين الحجارة. تدرج سلاح الرجل بعيداً، ووصل إليه نبت أولاً.

للمرة الأولى صار قاتلاً محتمل تحت سلطته المباشرة. أمسك البندقية ووجهها إلى الرجل، فرأى الخوف في عينيه؛ الخوف نفسه الذي رآه المسلّحون يوماً في عيني أبيه، والذي رآه السجّانون في عينيه. وفي الخلف كان الرجل الذي يمسك أمّه يحاول جرّها نحو المركبة.

رفع نبت السلاح. كان يستطيع أن يطلق، وأن يسبي الرصاصة دفاعاً أو ثأراً أو ضرورة. وكانت في داخله أعوامٌ كاملة تدفع إصبعه: دم أبيه، وموت مروان، واحتجاز أمه، وإحراق الكتب. شعر أنَّ كلَّ مظلومٍ عرفه يقف خلف الزناد.

ثم رأى وجه الرجل كاملاً بعد أن سقط قناعه.

كان هو الفتى الذي فتّش حقييته في أول الطريق، وكادت قدمه تستقرُّ قرب المصحف الأخضر؛ كبر وجهه، واشتدَّت ملامحه، لكنَّ نبتاً عرف العينين. هذا الرجل كان ضمن المجموعة التي دخلت قريتهم وأخذت أباه. وربما كان يعرف من أطلق النار عليه، وربما شارك في تركه ينزف.

اقتربت المسافة بين الثأر والقدرة حتى صارت إصبعاً واحدة.

لكنَّ نبتاً أدرك أنَّ اللحظة لا تسأله عما يستحقه الرجل وحده، بل عمن سيصبح هو بعد أن يطلق. كان الرجل ساقطاً بلا سلاح، ولم يعد خطره المباشر قائماً. قتله الآن لن يكون دفعاً لاعتداء، بل تنفيذاً لحكم صنعه الغضب في لحظة لا شهود فيها. وإذا فعل، فقد يريح جرحه لحظةً، لكنه سيقضي عمره يختلق لنفسه لغةً تبرر ما عرف قلبه أنه انتقام.

أنزل فوهة البندقية.

لم يترك الرجل، بل قيد يديه بحزامه، ثم اتجه نحو من يمسك أمه. وحين رأى المهاجم الثاني السلاح في يده تركها وفرَّ نحو السيارة. وصلت سكينه إلى ابنها، بينما جلس الأسير فوق الأرض مذهولاً؛ لم يفهم لماذا لم يقتله الرجل الذي يملك من الأسباب ما يكفي للكرهية.

لم يكن عفواً كاملاً؛ فلم يقل نبت إنه سامحه، ولم يسقط عنه المسؤولية، بل أنقذه من القتل ليسلِّمه إلى شهادةٍ وعدالةٍ معلنة. فالرحمة ليست دائماً إسقاط الحساب، كما أنَّ الحساب لا

يحتاج دائماً إلى الكراهية. وقد تكون أشدّ مواجهةً للقاتل أن يُحرّم من بطولة الموت السريع، ويُجبر على النظر في أسماء الذين ساعد على قتلهم.

في الطرف الآخر من القرية تمكّن الأهالي من إغلاق الطريق بالحجارة، وتعطلت إحدى المركبات. وحين عادت شبكة الاتصال عبر جهاز احتياطي، خرجت الصور دفعةً واحدة إلى الصحفيين والхамين. ظهرت الوجوه وأرقام السيارات والحريق، وفشلت محاولة تقديم الهجوم بوصفه نزاعاً مجهول الأطراف. بدأ المهاجمون ينسحبون، تاركين وراءهم اثنين من رجالهم وعدداً من الأسلحة.

مع الفجر كانت النار قد خمدت. احترق نصف المكتبة ومخزن الأدوات، وأصيب ثلاثة من الأهالي، لكنّ أحداً لم يُقتل. جلست سكينه قرب نبت تعالج جرحاً في ذراعه، بينما ظلّ الأسير في الجهة المقابلة مطأطئ الرأس. وعندما سُئل عن اسمه، ذكره بصوتٍ خافت، ثم اعترف أنّه شارك في حملة الإخلاء الأولى.

سأله المحامي عن والد نبت.

رفع الرجل عينيه، ونظر إلى الابن طويلاً. اعترف أنّ الأب أُصيب برصاصةٍ أطلقها قائد المجموعة حين حاول منعهم من أخذ رجلٍ مسنّ، وأنهم تلقوا أمراً بعدم نقله إلى المستشفى حتى يكون موته رسالةً لبقية القرية. لم يكن الحادث تبادلاً عشوائياً للنار كما قيل، بل قتلاً متعمداً تركّ بعده الرجل ينزف.

سمعت سكينه الاعتراف وهي تمسك قبض زوجها. لم تصرخ ولم تقترب من الأسير. أغضت عينيها، كأنّها تضع آخر قطعةٍ في حكايةٍ ظلت ناقصة. كانت الحقيقة أشدّ إيلاماً من الشك، لكنها منحت موت زوجها اسمه الصحيح، ومنعت القتل من الاختباء خلف فوضى الحرب.

يُجِلّ الاعتراف بالصوت والصورة، وذكر الرجل أسماء القائد ومسؤولي الشركة والضباط الذين أصدروا الأوامر. ولم يفعل ذلك لأنّ ضميره استيقظ كاملاً، بل لأنّه شعر أنّ الجهة التي خدمها تركته خلفها، ولأنّ الرجل الذي كان يستطيع قتله أبقاه حيّاً. وقد يبدأ الإنسان طريق عودته إلى الحق من دافع ناقص، ثم تصححه الطريق إذا صدق في مواصلتها.

كان الاعتراف آخر ما احتاج إليه الملف. خلال الأيام التالية صدرت أوامر قبضٍ، وجمّدت حسابات الشركة، ووُضع موقع التعدين تحت حراسة جهة قضائية مشتركة. لم يُعتقل جميع المتورطين؛ هرب بعضهم، وحث بعضهم قوى أكبر من المحكمة. ولم تتحول البلاد فجأةً إلى دولة عدل، لكنّ الشبكة التي بدت عصيّةً على المساس انكسرت، وصار الهاربون يحملون أسماء جرائمهم بدل أن يحمل الضحايا تهمهم.

أما سالم، فقد أُحضر إلى جلسة تحقيق علنية نسيّاً، وشهد بما يعرفه عن مروان والمعتقلين وشبكة الشركة. اعترف كذلك بصمته ومشاركته في نقل سجناء، وقيل أن يُحاسَب. لم يخرج حراً فوراً، لكنّه دخل السجن هذه المرة باسمه وفي سجّلٍ معلن، لا خفيةً مخفية ولا حارساً يختبئ خلف الأمر. وكانت تلك بداية عدالته الممكنة: أن يرى كاملاً، بخطيئته وشهادته، من غير أن تلتهم إحداهما الأخرى.

بعد أسابيع صدر قرارٌ أوليٌّ يثبت حقّ الأهالي في العودة، ويبطل العقود التي وُقِّعت تحت الإكراه، ويجعل أيّ استثمارٍ للموارد مشروطاً بموافقتهم ومشاركتهم. لم يكن القرار نهاية الصراع، فالقرارات تحتاج إلى مَنْ يحرس تنفيذها، لكنه أعاد إلى الورق وظيفته الأصلية: أن يحمي الحق، لا أن يجمّل سلبه.

بدأ ترميم المكتبة. أعاد الأطفال تنظيف الكتب التي اسودّت أطرافها بالدخان، وكتبوا أسماءهم في دفتر صالح. وزُرعت قرب شجرة السدر شتلاتٌ جديدة، لا لتعويض الشجرة

القديمة، بل لمجاورتها؛ فقد رفض نبت قطع نصفها المحترق. أرادها أن تبقى بجذعها الأسود وغصنها الأخضر شهادةً على أن التعافي لا يحو أثر النار، وإنما ينبت من خلاله.

وفي مساء يوم هادئ، وقف نبت اليقين مع سلمى عند حافة الوادي. كانت المدرجات تستعيد لونها، والماء يجري ضعيفاً في القناة التي أصلحها الأهالي. لم يحتاج إلى خطابٍ طويل ليطلب منها أن تشاركه البيت الذي سيبنيه في موضع البيت القديم. أخرج المفتاح الصدي ووضعه بينهما؛ لم يكن يملك باباً يفتحه بعد، لكنه كان يملك المعنى الذي يريد أن يُقام عليه الباب.

قبلت سلمى أن تبدأ معه، لا بوصفها جائزةً في آخر رحلته، بل شريكةً لها رحلتها وجرحها واختيارها. واتفقا أن يكون البيت مفتوحاً للمكتبة ولأهمها وللذين يبحثون عن أسماء مفقودهم؛ لأنَّ الحبَّ الذي ينغلق على سعادته وحدها قد يصير أنانيةً جميلة، أمَّا الحبُّ الذي يتَّسع للمعنى فيتحول إلى عمران.

عند الغروب عاد نبت إلى قبر أبيه وصالح. جلس بين القبرين، ووضع المصحف الأخضر في حجره، وقلم صالح إلى جواره، والمفتاح في كفِّه. كانت الأشياء الثلاثة تلخِّص الطرق التي عبرها: كُتِبَ علَمُه الوجهة، وقلمُ حَمَلِه الشهادة، ومفتاحُ ذِكْرِه بأنَّ الانتماء ليس قيداً إلى الماضي، بل مسؤوليةً عن المستقبل.

قرأ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، وشعر أنَّ الاستقامة ليست وقفةً ساكنةً ولا دعوى يصل إليها الإنسان مرةً واحدة، بل تصحيحٌ دائم للخطوة كلها مالت: أن يستعمل عقله حتى نهايته من غير أن يؤلِّه، وأن يتبع الوحي من غير أن يحوِّله إلى شعار، وأن يحبَّ أرضه من غير أن يظلم أرض الآخرين، وأن يطلب العدالة من غير أن يسمح للثأر بارتداء ثيابها.

رفع عينيه إلى القرية. كان الدخان يصعد من المواقد، والأطفال يخرجون من المكتبة، وسكينة تجلس أمام الجدار الجديد، وسلى ترتب ملفات الأسماء، وإياد يعلم شاباً كيف يحفظ الصورة قبل أن يصل إليها من يريد محوها.

أدرك نبتُ اليقين أنه لم يهزم الشرّ؛ فالشرُّ أقدم من شركةٍ وأوسع من جماعة، وسيظلُّ يجد في خوف البشر وطمعهم أبواباً جديدة. لكنه تعلم أنَّ الإنسان غير مكلف بأن يطفئ ظلمات العالم كلّها، بل ألا يسمح لها بإطفاء المصباح الذي أوثمن عليه، وأن يضع نوره قرب أنوار الآخرين حتى يتراجع الليل بمقدار ما يستطيعون.

وكان الجبل أمامه ثابتاً، لا لأنَّ الريح لم تضربه، بل لأنَّ جذوره أعمق من الريح.

ما أنبته اليقين

مرّت أعوامٌ على الليلة التي حاولت فيها النار أن تلتهم القرية، ولم تعد المدرّجات الزراعية صفائح من التراب المتشقّق كما كانت يوم وُلد نبتُ اليقين. جرى الماء في القنوات التي أعاد الأهالي حفرها بأيديهم، ونمت الذرة على السفوح، وارتفعت البيوت من حجارها القديمة، لا كما كانت تماماً، بل كما استطاعت الذاكرة أن تبني نفسها بعد الخراب. فقد تعلّم الناس أنّ ما يعود من الموت لا يعود بالهيئة ذاتها؛ يحمل أثر القبر في ملاحمه، لكنه يحمل كذلك معرفةً جديدةً بقيمة الحياة.

لم تصبح القرية غنيّة، ولم تتحول إلى الحلم الذي تصنعه نهايات الحكايات لتكافئ أبطالها. بقي الشتاء قاسياً، وشخّ الماء في بعض الأعوام، واختلف الناس حول إدارة التعاونية وتوزيع العوائد، وحاولت العصبية القديمة أن تعود بثياب جديدة. فالشرُّ لا يغادر مكاناً لأنّ معركةً انتهت، ولا يصبح المظلوم عادلاً تلقائياً حين تزول يد ظالمه؛ ربما حمل في داخله طرائق الطغيان التي قاومها، وانتظر فرصته ليستعملها باسمٍ آخر.

لهذا ظلّ نبتُ اليقين يحذّر أهل القرية من أن يجعلوا انتصارهم وثيقة براءة أبدية. كان يقول في كتاباته إنّ العدالة التي انتزعوها من الشرّكة ينبغي أن تبدأ بينهم، وإنّ الأرض لا تتحرّر حقاً إذا انتقلت من سلطة الغبراء إلى احتكار الأقرباء، وإنّ الإنسان قد يرفع راية المظلوم طويلاً حتى إذا مُكّن نسي كيف كان الظلم يؤلمه. ولم تكن كلماته ترضي الجميع؛ فقد أحبه بعضهم حين كشف خصومهم، ثم ضاقوا به حين اقتربت مرآته من وجوههم.

لكنه لم يعد يبحث عن رضا الناس كما فعل في بدايات الكتابة. عرف أنَّ الكاتب إذا جعل التصفيق ميزانه سيكتب نصف الحقيقة دائماً؛ النصف الذي يدين البعيد ويحفظ للقريب صورته. أما الشهادة لله فلا تعرف قرابةً تُعفي من العدل، ولا خصومةً تُبيح الاقتراء. وظلَّ يستعيد في قلبه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، فيشعر أنَّ القسط لا يكتمل حين يضعه الإنسان في ميزان الآخرين، بل حين يقبل أن يقف هو نفسه فوق كفتِّه.

أُنشئ مجلسٌ لأهل القرى يشرف على استثمار محدودٍ للمعادن، وفق شروطٍ تمنع تهجير السكان وتخصِّص جزءاً من العائد للمدارس والمياه وعلاج الفقراء. لم يكن النظام كاملاً، لكنه أعاد العلاقة بين الأرض وأهلها إلى شيءٍ من معناها؛ فلم يعد ما في باطن الجبل لعنةً تستدعي المسلَّحين، بل أمانةٌ ثقيلة ينبغي أن تُدار من غير أن يُباع المستقبل لإشباع الحاضر.

أما دار البصيرة فقد اتسعت حتى صارت مكتبةً ومدرسةً صغيرة. احتفظت باللافتة القديمة التي بهتت حروفها، وعلَّقها داخل المدخل الجديد، لتظلَّ شاهدةً على الغرفة الضيقة التي بدأت منها الحكاية. ووضع قلم صالح الورَّاق في صندوقٍ زجاجي فوق طاولته، لا ليحوِّله إلى أثرٍ مقدَّس، بل ليدركَ الأطفال بأنَّ الأشياء البسيطة قد تحمل أعمار أصحابها: قلمٌ أسود يستطيع أن ينقل بصرية رجلٍ مات إلى يد طفلٍ لم يولد يوم كان يكتب.

وكان دفتر الإعارة القديم لا يزال يُفتح كلَّ صباح. كبرت الأسماء التي خطَّها صالح في صفحته الأخيرة، وصار أصحابها شباناً؛ أحدهم معلِّم، وآخر ممرِّض، وثالث عاد إلى الزراعة بعدما درس هندسة المياه. لم يصبحوا جميعاً كتَّاباً، ولم يكن ذلك ما أراده الورَّاق. كانت غايته أعمق: أن يتعلم كلُّ منهم قراءة العالم قبل أن يكتب الآخرون له تفسيره، وأنَّ تمنحه الجماعة عقلاً جاهزاً يعفيه من مسؤوليته أمام الله.

خرج سالم من السجن بعد أن قضى مدةً حُكِّمَ بها لقاء ما ثبت من مشاركته، وبعد أن أسهمت شهادته في الكشف عن مصائر معتقلين وإغلاق المبنى الرمادي. لم يخرج بطلاً ولا منبوذاً كاملاً؛ خرج رجلاً يحمل في سجله خطيئةً وشهادة، ويحمل في نفسه معرفةً مرّةً بأنَّ التوبة لا تعيد الزمن، لكنها تمنع الخطيئة من امتلاك ما بقي منه.

لم يعد إلى وظيفةٍ لها مفاتيح وأبواب. عمل في مركزٍ لتوثيق الانتهاكات، وكانت مهمته جمع أسماء السجناء المجهولين وتتبُّع أماكنهم. ولعلَّ في ذلك عدلاً رقيقاً لا تصنعه المحاكم وحدها: أن يقضي الرجل الذي أغلق أبواباً جزءاً من عمره في فتحها، وأن يستخدم معرفته بممرات الخوف ليدلَّ الآخرين على مخارجها. ولم يطلب من أسر الضحايا أن تسامحه؛ فقد عرف أنَّ التوبة حقٌّ بينه وبين الله، أمَّا المسامحة فليست ديناً في عنق المجرور يؤدِّيه لإراحة الجاني.

أما إياد، فلم يعد الرجل الذي كانه قبل الاعتقال، وتوقف أهله عن مطالبة عينيه بالعودة إلى صورته القديمة. عاش بنومٍ متقطَّعٍ وذاكرةٍ تفتح أبوابها في أوقاتٍ لا يختارها، لكنه صار يدير أرشيفاً للمفقودين إلى جوار أخته. كان يعلم المتطوعين أنَّ الصورة ليست ورقةً باردة، بل مقاومةٌ للفناء؛ فإذا عرف الناس وجه الغائب واسمه وحلته، تعدَّرت على السجنان أن يحولَّه إلى رقم.

وبقيت سلمى تجمع الأسماء، لكنها لم تعد تبحث عن أخيها وحده في كلِّ ملف. بعد عودته بدأت تتعلَّم أن تعيش خارج الانتظار، وأن تحبَّ أخاها كما عاد لا كما حفظته الذاكرة. وبنّت مع بنت بيتاً في الموضع الذي كان فيه بيت طفولته، وأصرَّ أن تُترك حجارةٌ من الجدار القديم ظاهرةً داخل البناء الجديد؛ لأنَّ البيت الذي ينكر خرابه الأول يبقى هشاً أمام الخراب القادم، أما الذي يعترف بندوبه فيعرف ثمن بقاءه.

لم يكن زواجهما خاتمةً للألم، بل بداية حياةٍ عادية بما تحمله الحياة العادية من اختلافٍ وتعب ومسؤولية. لم تتحول سلمى إلى ظلٍّ في سيرة زوجها، ولم يطلب منها أن تذيب جرحها في مشروعه. كان لكلٍّ منهما صوته وعمله، وكنا يلتقيان في الوجهة ويختلفان في الطريق إليها أحياناً. وتعلّما أنّ الحبَّ ليس تطابقاً يحو الشخصيتين، بل أمانٌ يسمح لكلٍّ واحدٍ بأن يكون نفسه من غير أن يخشى فقد الآخر.

ورزقا ابنةً سمّتها سكينه بصيرة. وحين كبرت قليلاً، صارت تجلس تحت شجرة السدر تستمع إلى جدّتها تحكي لها عن الجدِّ الذي مات في الطريق، والبيت الذي صار ركاماً، والمفتاح الذي بقي بعد زوال الباب. لم ترو سكينه الحكاية لتزرع الكراهية في قلب الصغيرة، بل لتمنحها ذاكرةً لا تستولي عليها روايات الأقوياء. كانت تعرف أنّ الطفل الذي يرث الجرح بلا معنى قد يحوِّله إلى ثأر، أما الذي يرث الحقيقة موصولاً بالإيمان فقد يجعلها بصيرةً تمنع تكرار الجريمة.

تقدّم العمر بسكينه، وخفَّ جسدها حتى صارت خطواتها فوق الأرض أشبه بمرور نسمة. وفي سنواتها الأخيرة كانت تقضي نهارها عند عتبة البيت الجديد، ترى الأطفال يذهبون إلى المكتبة، والنساء يعبرن إلى التعاونية، والماء يلعب في القناة. لم تكن تتحدث كثيراً عما جرى؛ فقد بلغ الحزن فيها من النضج ما جعله هدوءاً، وصارت تنظر إلى حياتها كلّها كما ينظر المسافر من قمة جبل إلى الطرق التي قطعها، فيرى تعرجاتها التي لم يفهمها وهو داخلها. وفي صباح شتوي، وجدها نبت جالسةً قرب النافذة، والمصحف مفتوحٌ في حجرها عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾. كانت مغمضة العينين، وعلى وجهها سكينه تشبه اسمها. رحلت كما عاش إيمانها: بلا ضجيج، مستندةً إلى من لم يخذل قلبها حين خذلتها الطرق والبيوت والبشر.

دُفنت إلى جوار زوجها، تحت شجرة اللوز التي عادت إليها الخضره بعد أعوام الجذب. ووضع نبت المفتاح الصديء فوق قبرها لحظةً، ثم أعاده إلى جيبه؛ فقد أدرك أنّها لم تعد تحتاج إلى مفتاح البيت، وأنّ الأبواب التي عبرتها الآن لا يفتحها حديد.

أحسّ بعد موتها أنّ اليتيم عاد إليه رغم أنّ الشيب بدأ يتسلّل إلى رأسه. فالإنسان لا يكبر على حاجته إلى أمّه، وإنما يتعلّم إخفاء الطفل الذي يمدّ يده إليها. دخل غرفتها، فوجد قيص أبيه مطوياً كما ظلّ أعواماً، ورسالتها القديمة داخل المصحف، وانخبط الأزرق بين صفحاته. اجتمعت الأشياء التي فرّقها الحروب أخيراً في مكانٍ واحد، وشعر أنّ حياته لم تكن رحلة ابتعادٍ عن البيت، بل رحلةً طويلةً لفهم معناه.

بعد أيام هطل المطر.

بدأ خفيفاً فوق الجبل، ثم اشتدّ حتى جرت المياه في الوادي وامتلاّت المدرّجات. خرج الأطفال يركضون تحت السماء، ووقفت بصيرة تمدّد كفّيها إلى القطرات، بينما كان نبت اليقين واقفاً تحت شجرة السدر. كبر الغصن الأخضر الذي شقّ الجذع المحترق، وصار فرعاً واسعاً تخرج منه أوراقٌ جديدة كلّ موسم، لكنّ السواد بقي ظاهراً في نصف الشجرة. ولم يرَ نبت في بقائه قبحاً؛ كان السواد هو الذي يجعل الخضره شهادةً، فلولا أثر النار لبدت الأوراق حياةً عادية، لا انتصاراً صامتاً عليها.

عاد إلى البيت، وأخرج من صندوقه المصحف الأخضر وقلم صالح والمفتاح. وضعها على الطاولة أمامه، ثم فتح دفترًا جديداً. كان قد كتب مقالاتٍ وتحقيقاتٍ وشهاداتٍ كثيرة، لكنه شعر أنّ الحكاية التي عاشها لم تُكتب بعد؛ فقد سجّل الجرائم والوثائق والأسماء، ولم يسجّل الطريق الداخلي الذي قطعه الصبي من الخوف إلى الاختيار، ومن الفقد إلى المعنى، ومن الانتماء بوصفه مكاناً إلى الانتماء بوصفه عهداً.

كتب في الصفحة الأولى:

«لم يكن اسمي عبيراً في حياتي، ولا كان لفظاً اختاره أبوي لِينَادِي به بين الناس ثم ينتهي أثره عند حدود السمع؛ فقد سَمَّاني أَبِي نَبْتَ اليقين في عامٍ أَجْدَبَتْ فيه الأرض...»
ثم تَوَقَّفَ، ورفع عينيه إلى المطر.

أدرك أَنَّ اليقين لم يكن صخرةً صلبةً وُضِعَتْ في قلبه فلم تتزعزع، بل نبتةٌ عاشت لأنها كانت تُمَدُّ جذورها كلما اشتدَّت الريح. ضعفت، وانحنت، وكادت تيبس، لكنها وجدت في الوحي ماءها، وفي ضميرها تربتها، وفي الذين أَحَبُّوه ظلالها. ولم تكن قُوَّتُهُ أَنَّهُ لم يشكَّ أو يخفَّ أو يحزن، بل أَنَّهُ كلما تاه رَدَّ خطاه إلى الوجهة، وكلما بلغ بعقله حده وقف متواضعاً أمام علم الله، وكلما عرضت عليه الحياة نَجاةً تخونه اختار أن يخسر ما يمكن تعويضه، ويحفظ ما إذا ضاع لم تعوّضه الدنيا كلها.

لقد عرف أخيراً أَنَّ الإنسان رهين خياراته، لكنَّه ليس وحيداً فيها؛ يسنده كتابٌ يهديه، ورحمةٌ تسبقه، وأقدارٌ لا يفهمها كلها، وربٌّ لا يضيِّع كدح عبده. وَأَنَّ فنَّ الوجود ليس أن يصنع المرء حياةً بلا ألم، فهذا وهمٌ يخالف طبيعة الدنيا، بل أن يصنع من الألم معرفةً، ومن المعرفة موقفاً، ومن الموقف طريقاً مستقيماً لا ينجل إذا لقي الله في آخره.

وفي الخارج كانت بصيرة تغرس شتلةً صغيرة قرب شجرة السدر. حفرت لها في التراب، وسقتها من ماء المطر، ثم ثبتتها بحجرين كيلا تقتلعها الريح.

نظر إليها نبتُ اليقين، وابتسم.

كان يعرف أَنَّ الريح ستأتي.

لكنه كان يعرف، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أنّ للريح حدوداً، وأنّ الجذر الذي يعرف
أرضه، ويستمدُّ ماءه من السماء، يستطيع أن يبدأ الحياة مرةً أخرى.
تمّت الرواية، بحمد الله تعالى.